لواحق المقتطف الشهرية

يناير ١٩٤٦

فك الأغلال

بحث في الثقافة التقليدية وعلاقتها بالتربية القومية

تأليف

اسماعيل مظهر

رئيس تحرير المقتطف

جميع حقوق الطبع محفوظة للمقتطف

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٦

مقدمة

اتجاه مبارك ذاك الذي حمل جملة من متفقهي هذه البلاد ورجالات التعليم فيها على عقد مؤتمر التعليم الذي نشرت قراراته في صحفنا منذ حين.

ومهما يكن من أمر تلك القرارات، ومهما يكن من أمر البحوث التي ألقاها في المؤتمر فئة من أهل الرأي، فانها جميعاً تنطوي على اتجاهات تنظيمية، لا تتعدّى تنظيم مدارج التعليم والنظر في بعض خصّيّاته، مع الاحتفاظ بالروح القديم الذي جرى عليه التعليم حتى الآن، أو على الأقل بأكثر ما في هذه الروح من ماهيات. بل إن الأمر قد تعدّى هذه الاتجاهات الى الكلام في مسائل تجريدية منها تنشئة حس الجمال. وليس لنا أن نتكلم في مثل هذا. فليس المجال مجال نقد لما تصدّى له المؤتمر، وانما المجال مجال القول في الغرض الذي ينشده التعليم، والمرمى الذي ترمي اليه التربية.

لا ريب مطلقاً في ان لكل عمل انساني غرض أصيل يرمي اليه. فما هو الغرض الذي نرمي اليه من التعليم؟ وما هي السبيل التي ينبغي أن نسوق فيها الشباب؟

ذلك ما لم يعرض له المؤتمر بطريقة واضحة. وعندي ان الغرض الأسمى من التربية هو تنشئة رجال مستقلين. رجال، الاستقلال أخص مميزاتهم. رجال مستقلون في الرأي والخلق وفي كسب الرزق الحلال، بحيث تضعف فيهم صفة التطفل الاجتماعي والتواكل، بقدر ما تقوى فيهم صفة الانتاج والأصالة.

أريد أن أقول ان التعليم الصحيح الذي يسد هذا الغرض، هو أن نصل بين التعليم والحالات الاجتماعية التي تكتنفنا في هذه البقعة التي نشغلها من كرة الأرض. كما أريد أن أقول إنه أساس التعليم السليم الذي يمكن أن يخرج هذه الفئة من الرجال، هو التعليم الذي يتصل بثقافتنا التقليدية.

هذه النظرية الجديدة المقتطعة من صميم بيئتنا، هي موضوع هذا البحث الذي ننشره معتقدين أن في الأخذ بنظريته، فكّ الاغلال. والاتجاه نحو آفاق الحرية الاجتماعية السليمة من أمراض التطفل والجشع الاجتماعي.

الطبع اللّيّن الجانب ، بما فيه من قوة المقاومة السلبيّة ، الفرس والروم والرومان والعرب ، والمماليك والأتراك ، ولا يزال مستعدًّا لابتلاع خمسين قيصرية من أمثال هذه القيصريات العظام ، وهو قابع في عقر حقله الصغير ، وفي كسر بيته الطيني ، تاركاً دورات الحظ تدور بالسعد حيناً وبالنحس حيناً آخر ، وما يهمه في الحياة من شيء . إلاّ أن يضحك ساخراً من الأمم والأقدار .

على أن الاطناب في مثل هذه الأشياء تحصيلُ حاصل ، والاستطراد في ذكر الشواهد عَبَثٌ . لأننا نشعر شعوراً كاملاً بأن الأدب المصري اسم على غير مسمى . وإن شئت فقل إنه فرض لا حقيقة له . وأنا أقصد بالأدب المصري . الأدب المقتطع من حياتنا ومن أنفسنا ومن أخيلتنا . الأدب الذي إذا قرأته تبينت فيه مصر وأرض مصر وسماء مصر وتاريخ مصر وعلى الجملة كل ما توحي به مصر من الموحيات الدفينة في نفوسنا الرسيسة في طبعنا الطائرة في أرواحنا .

أما السبب في كل هذا فهو أننا بَعُدنا عن ثقافتنا التقليدية، بل أننا قطعنا صلتنا بالماضي وهِمْنا في فلوات لا نعرف فيها طريقاً نسلكه ، لا إلى الأمام لنصير أوربيين صرفاً . ولا إلى الوراء لنعود إلى مصريتنا مرة أخرى . وإذن فنحن في التيه . ولكنه التيه الذي سوف لا نخرج من ظلماته ما دمنا غير قادرين على تقييم حقائق وجودنا تقييما صحيحاً . وما دمنا عاجزين عن إدراك تلك الحقيقة الأولية . حقيقة أن ثقافتنا التقليدية هي الملجأ الأخير الذي يوقظ فينا « الروح المصرية » التي من طريقها نكوّن الأدب المصري الذي ينبغي أن يكون من حياتنا الأدبية بمثابة الجهاز الهضمي في الحيوان . فيه تهضم الآداب الأخرى ثم تمثل (١) أدباً جديداً ملائماً لآدابنا ومشاعرنا وأخيلتنا . وفي الوقت نفسه تطرد النفايات . تلك النفايات التي تسمم أدبنا وتفسده . لأن أدبنا الجديد أضعف من أن يفرزها إلى الخارج جسمه المتهدم الضئيل

هذا من حيث الأدب . أما الوطنية المصرية ، ووصفها بأنها وطنية ظاهرية . فلا يرجع إلى حب الأغراب . ولا إلى حب النقد بغير دليل يقام ، أو حجة مقبولة . لهذا تتسم الوطنية

(١) بالمعنى الاحيائي ، أي تصير جزءاً من الفطرة

ومهما يكن من أمر الباحث الأوربي في الشؤون المصرية ، ومهما يكن من علمه وتعمقه فيه ، فانه من المتعذر عليه كما قال مستر « مان » في تقريره ، أن يلم به المام المحيط بالحقائق الأساسية التي يحس بها المصريون أنفسهم ، من غير استعانة بآرائه أو نظريات . ذلك بأن لكل أمة إحساساً بما يعتورها من نقص ، لن يفقه الغريب عنها شيئاً من خصائصه ، الا بالجهد الشديد ، وطول التأمل والتفكير . مثل ذلك أن التقريرين اللذين وضعهما العالمان الأوربيان لم يمسا الحقائق الأولية في حياتنا الاجتماعية وعلاقتها بالتعليم ، ذلك في حين أن كل مصري يشعر شعوراً عميقاً بأن عصراً من عصور التطور الفكري قد آذن بأن تشرق شمسه في سماء مصر ، وأن عصراً آخر قد أخذ في الأفول . أضف الى ذلك أننا نشعر بأن حالاتنا الاجتماعية قد اتجهت في تطورها متجهاً ألقى على التعليم في مصر عبئاً جديداً لم يشعر به آباؤنا ، وقد نشعر بعض الأحيان بشيء من القلق ، وقد نشعر بأن هذا القلق قد يتضاعف بعض الأحيان ، حتى ليذهبُ بالبعض إلى اليأس من مستقبل آلاف الطلبة الذين يتعلمون اليوم في المدارس وتخرّجهم الكليات زرافات كل عام . بل إننا أخذنا نشعر بكل ما شعر به الأستاذ هنري جيمس عند ما قال : إن الاحتفاظ بحالة اجتماعية ثابتة الدعائم قوية الأركان في جمعية يكتب على المتعلمين فيها عيش الفقر والذلة ، لأمر فيه من البعد عن حقائق الطبيع البشريّ بقدر ما في محاولتك بناء هرم يرتكز على رأسه لا على قاعدته ، من بعد عن حقائق الطبيعة الكونية » [1] .

ولقد يُماري مفكر في أنّ ذلك الشعور العميق الذي يكتنف تفكير الكثيرين من المصريين ، إنما له أسبابه الغامضة البعيدة عن إدراك الذين لا يفكرون في التعليم إلاّ بقدر ما يفكرون في أداة لتخريج المتعلمين ، ولا يزيد خطره في نظرهم عن خطر آلة تخرج أحذية أو ثقافات تبغ ، في نظر عامل يجهل حقيقة الآلة التي يديرها ، ولا يعرف عنها إلا أمرين : شكلها الظاهر ، وثمرها الذي يجتنيه منها .

على أن الثمر الذي أخذنا نجتنيه من أداة التعليم عندنا قد حدثت عليه ظاهرتان : الأولى :

---

(١) العبارة هنا مترجمة بالمعنى لا بالحرف

أنَّ طعمه أخذ يتغيَّر ، والثانية : أن سنه أخذ ينحطُّ مع كثرة الانتاج . ولا شك في أنهما ظاهرتان يطلُّ بهما كثير من الظواهر الاجتماعية التي تمر علينا في كل يوم صورٌ منها ، وأخصها كثرة المتعطلين من المتعلمين ، والجهد الفادح الذي يلقاه المجدُّون منهم في تحصيل رزقهم الحلال .

ولا ريب في أن هذه الظاهرات ترجع الى أسباب أخذت تتجمَّع منذ أكثر من نصف قرن من الزمان ، حتى أفضى بنا التطور الى الحالة التي تكتنفنا اليوم . ولما كان الغرض الذي أرمي اليه إنما يتجه الى وصف العلاقة التي تقوم اليوم بين التعليم والحالة الاجتماعية ، والمهمة الكبرى المُلقاة على عاتق التعليم في تنظيم الحالة الاجتماعية ، ودرء الاخطار التي قد يتعرَّض لها المجتمع المصري ، بقدر ما في مستطاع التعليم أن يدرأ منها ، وجب أن أظهر أولاً أن أشد الأخطار التي يتعرَّض لها الكيان الاجتماعي في مصر من ناحية التعليم ، أن الشاب المتعلم في مدارسنا العليا يفقد مع التعليم استقلاله الذاتي ، باعتباره قوة لها حقيقة مستقلة عن القوى الأخرى التي تكتنفها . وقد يشعر بذلك الشاب المتعلم ، وقد يشعر به الذين يعلّمون أولادهم ، حتى لقد نجد أن بعض القادرين على التفكير ينظرون نظرة تشاؤم إلى المستقبل القريب ، وإنَّ لهم في ذلك لحقًا ، وإن لهم في تشاؤمهم لاسباباً تبرّره وحقائق تعلّله ، ومن أجل أن نظهر تطوُّر الحالات التي أفضت بنا الى هذه النتائج ، ينبغي لنا أن نذكر حقائق خمساً نرجع فيها الى تاريخنا بعض الشيء :

أولا : حُكمت مصر منذ أبعد العصور على نظام تباين الطبقات الاجتماعية ، وعلى أساس الفوارق في الحقوق العامة . غير أن الطبقات أخذت تتقارب حقوقها الطبيعية وتمتحي من بينها الفوارق من عهد قريب ، فالكل الآن متساوون أمام القانون ، ولو نظريًا على الأقل ، ولكل مصري حق الانتخاب والحكم من طريق مجلس النواب . فأخذ مظهر وجود طبقتين ممتازتين في الحقوق المدنية يزول شيئاً بعد شيء . فلقد كانت مصر القديمة مكوّنة من ثلاث طبقات هي : الحكام والكهنوت والشعب ، ومنذ غزو الاسكندر وحكم البطالمة إلى حكم المماليك حتى بدء الاحتلال الانجليزي ، كانت هنالك طبقات تحتلف حقوقها وامتيازاتها . أما الآن فقد امتحت هذه الفوارق نظريًا ، وتقول نظريًا ، لاننا لا نزال

تشكو من بعض مساوئها ، بالرغم من أن أصغر فلاح في مُكنته أن يقاضي أعظم عين في البلاد ، وأن يأخذ حقه منه إن كان له حق .

ثانياً : بالرغم من أن نظام الطبقات المتباينة في الحياة والحقوق ، هو النظام الذي اتبع في مصر منذ أبعد العصور، وبالرغم من أن حالة مصر الاجتماعية من خمسين سنة مضين كانت تكفل الاستقلال المادي لطبقتي ذوي الامتيازات والفلاحين معاً ، بأن تحمل طبقة الفلاحين وهي الطبقة العاملة ، عبء كفاية نفسها وكفاية حكامها ، بقدر الاستطاعة ، فإن الحالة الجديدة ، حالة التساوي أمام القانون في الحقوق ، قد أحدثت ظاهرة اجتماعية جديدة ، جعلها أن الفلاح قد خرج من كونه عاملاً لا حقّ له في ملكية الأرض ، إلى رجل حرّ له حق العمل متى شاء ، والانقطاع عنه متى أراد ، وله فوق ذلك حق التملك ، بل نقول إنه انتقل من عامل إقطاعي إلى رجل حرّ . فحدث بذلك تطور جديد .

ثالثاً : هذا التطور الجديد الذي حدث بتحرير الفلاح المصري ، وعتقه من نظام الاقطاع الذي ظلّ خاضعاً له طوال القرون ، قد قلب آية الحياة الاجتماعية في مصر ، فإن هذا الفلاح لم يكن ينقصه من شيء ليكون مستقلاً تمام الاستقلال في حياته إلاّ قانون يحميه ، ونظام اجتماعي يجعله يشعر بأنه قوة لها أثر في الحياة ، فلما وقع ذلك بالفعل أصبحت الطبقة الدنيا أي طبقة الفلاحين المحررين ، والتي كان عليها أن تحفظ استقلالها واستقلال الطبقة التي تعلوها ، سيدة نفسها ، وأصبحت طبقة الملاّك وأصحاب الجاه ، كما كانت في الحالة الأولى ، عبئاً عليها ، ولكن في صورة جديدة ، أخذت شكل صراع خفي بين طبقتين .

رابعاً : ولقد انحصر مظهر هذا الصراع في طبقة تحرّرت من قيود النظام الاقطاعي : وهي الطبقة المنتجة العاملة بيدها ، فأصبحت مستقلة بنفسها ، وهي طبقة قادرة على الحرث والغرس والحصاد في بلاد لن يزرعها غيرها ، ولن ينتفع بها غيرها ، فهي مستقلة ما دامت من فوق الأرض التي يغذيها النيل بشرايينه الحيية ، وهذه الظاهرة الجديدة أحدثت ظاهرة أخرى .

خامساً : تكفلت الطبقة الأخرى ، طبقة أصحاب الجاه على منطق آخر تتقي به النتائج التي تترتب على استقلال الطبقة العاملة ،ولم تجد من وسيلة أقرب من تعليم أولادها ليكونوا

حكام البلاد . ولكن صفة الفلاحين أخذت تزاحم الطبقة الأولى في هذا المضمار ، ومضى الأثرياء منهم يدفعون أولادهم ليكونوا حكاماً ، فنجحوا . ولكن بعد أن مُلئت الحكومة بما تحتاج من حكام وكتبة ، قام شعورٌ جديدٌ بأن أولاد موظفي الحكومة والأثرياء الذين أخرجوا أولادهم من عبء الفلاحة الى محيط العلم ، أقلُّ استقلالاً مع تعلمهم من أبناء الفلاحين الجهلاء . وأصبحنا الآن والموقف بين متعلم متعطل يتطلع إلى مرتب أبيه أو ثروته ليعيش ، وفلاّح جاهل لا عمدة له في الحياة إلاّ خبرته الموروثة في فلح الأرض وقوة عضلاته وعراقه وفأسه وماشيته ، فهو رجلٌ مستقل تمام الاستقلال في الحياة ، على العكس من المتعلم المتعطل . فاذا كانت الغاية من التعليم تخريج رجال مستقلين يكافحون في الحياة كفاح المنتج ، لا كفاح المستغل لكفاح غيره ، رأينا أن التعليم لم يفز ببلوغ الغاية الأخيرة منه ما دمنا نرى أن ابن الفلاح بخبرته الموروثة مستقل في حياته منتج بعمله ، في حين أن المتعلم يفقد مع التعليم استقلاله الذاتي ، ويتطلع دائماً إلى حياة الركود ، لا إلى حياة الكفاح التي يهيء له تعليمه طريقها الواجب .

على أن قليلاً من التأمل في هذه الالمامة التي ألممنا فيها بأوجه التطور الاجتماعي الذي انتابنا منذ خمسين سنة خلت ، يحمل المفكر على المضي خطوة أخرى في تأملات إذا أحطنا بها ، نكون قد فرغنا من التمهيد للفكرة التي نريد أن تكون الدعامة التي يقوم عليها أساس التعليم في مصر فنرى ما يأتي :

أولاً : إن طرق التعليم التي عكفنا عليها إلى الآن شطرت الأمة معسكرين ، الأول معسكر المتعلمين على القواعد الأوروبية التي اتبعناها في مدارسنا ، وخرجوا بهذا التعليم عن جوّ ثقافتنا التقليدية ، فأصبحوا نصف مصريين ، والثاني معسكر الفلاحين الذين أبعدناهم عن الثقافة الحديثة ، وحافظنا على ثقافتهم التقليدية ، فصاروا بذواتهم في القرن العشرين وبعقليتهم في مصر الفرعونية [1] .

ثانياً : كوّنا بهذا معسكرين غير متجانسين ، بل مختلفين تمام الاختلاف ، بحيث لا تجمع

(1) قد يظن القارئ أن أبناء الأغنياء والمثقفين الذين يتعلمون في المدارس الأجنبية قد يؤلفون معسكراً ثالثاً . ولكن [illegible] بين الذين تخرجهم مدارسنا المصرية والذين تخرجهم المدارس الأجنبية من حيث الانفصال عن الثقافة [illegible] [illegible] ولا [illegible] يرى .

بينهما من رابطة الا الرابطة الطبيعية التي هي رابطة الدم ، فكنا بذلك أشبه بالمستعمر الذي يرغب دائماً في أن يزيد من الصدوع التي تفصل بين طبقات الأمة ، لا أشبه بالمصلح الذي يعمل دائماً على أن يرأب تلك الصدوع ، ويقرّب بين الطبقات حفظاً للتوازن الاجتماعي . ولا شك في أن هذه السياسة تؤدي بطبعها ، وعن غير قصد ، الى حرب الطبقات التي نحن مقدمون عليها حتماً ، اذا استمر التعليم على نماذجه الحاضرة، وأخذت تلك الصدوع والفوارق تزيد عاماً بعد عام .

ثالثاً : دليلنا على هذا أن ابن الفلاح إذا أثرت فيه الثقافة الحديثة سواء أكان تعليمه في مصر أم في إحدى جامعات أوربا ، أصبح لا ينشق في جو بلاده نسيم الثقافة التي نشأ فيها فتلحظ فيه روح التبرّم بأبيه الفلاح وأمه الفلاحة ، وتأنس فيه نزعة قديمة تدفعه دائماً الى حب العودة الى الجو الذي نشأ فيه ، فتراه قلقاً غير مستقر ، هدّاماً لا بنّاء ، يريد لو تتاح له الفرصة ليعود الى الجو الذي كان فيه ، فاذا أعيته الحيلة ، كما يحدث دائماً ، واضطر الى البقاء في جو بلاده هجر الريف ، مرباه الأصيل ومبرز آبائه وأجداده منذ قرون طويلة ، ومنشأ تقاليده منذ أزمان لا تعيها الذكريات ، ليسكن مدينة من المدن ، فيفضّلها مع عيش الفقر والعوز ، على الريف مع عيش الراحة والهناءة ، وتراه ينزع الى الفراغ والدعة في مدينة ، دون العمل الذي هو أجدر بحياة الرجولة في الريف . ومن هنا تتكوّن الطبقات المتبرمة بالحياة ، العاملة على الهدم دون الاصلاح ، النزّاعة الى الافكار المتطرفة والثورات . أولئك الذين عناهم العلامة هنري جيمس بكلمته التي سقناها من قبل .

رابعاً : وأنت أينما ولّيت وجهك رأيت أثر المعسكرين اللذين كوّنهما التعليم المصري ظاهراً جليّاً . فأنت تنتزع الولد من حضن أبيه الفلاح وأمه الفلاحة ، فكأنك تنزعه من حضن « مصر الفرعونية » لتنشّئه في حضن « مصر الاوربية » وتخرجه بعد ذلك قاضياً أو عاملاً أو مهندساً أو تاجراً أو رجل إدارة أو غير ذلك ، ولكن بروح أوربية تكسوها ثياب مصرية شفافة فضفاضة ، وبالأحرى تخرج رجالاً انبتّت صلتهم بتقاليدهم الثقافية القديمة ، وأنت في دور العدل ، وفي المتاجر ، وفي مراكز الادارة . وفي عيادة الطبيب ومكتب المهندس ، واقع في كل دقيقة على مظهر من مظاهر التفرقة بين المعسكرين . فالفلاح

البعيد عن مدنية المدن . وبالأحرى البعيد عن جوّ الثقافة الأوربيـة الذي نشأ فيه القاضي والمحامي والتاجر ومأمور المركز وممثلو الادارة وطبيب القرية ، يمثل معسكر مصر الفرعونية ، أما هؤلاء فانما يمثلون « مصر الأوربية » . ولاشك في أن هذا مظهر من مظاهر الانحلال الاجتماعي ، لا يسأل عنه في مصر شيء ، بقدر ما يسأل التعليم ، وأساسه الذي يقوم عليه .

خامساً : بالرغم من أن المتعلم قد نزع بفكره نزعةً أبعدته عن ثقافة آبائه التقليدية ، فقد أثرت تلك الحال في مزاجه وتصوراته ونظرته الفنية في الحيـاة ، تلك النظرة التي يجب أن تكون مصرية صميمة ، ويجب أن نحافظ عليها نقية على سجيتها لنكون مصريين جديرين بالمصرية ، وكان من نتائج هـذا أن المتعلمين يفضلون أقذر قرية أوربية على ريفنا الجميل ، وبحيراتنا الفاتنة ، حتى لقد تقوى النزعة الأوربية فينا على وحي النيل نفسه . والسبب في هذا إننا كنا في خلال الخمسين عاماً الماضية كالمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، إذ انتزعنا من أرواح ناشئتنا « مصريتها » ولم نترك فيها من المصرية إلاّ لون البشرة والتحـام بالروح « الأوربيـة » فلم نبق مصريين كأهل الريف ، ولم نستطع أن نكون أوربيين كفتيـان « پيكادلي سركس »[1] .

سادساً : بدأت هذه الحال تؤثر في مرافقنا الحيوية ، حتى لقد نزعنا إلى القول بأن كل ما هو أوربي جميل ، وكل ما هو مصري رديء ، وكل فكرة مصرية لعب ولهو ، وكل فكرة أوربيـة جدٌّ ورجولة ، وكل فن مصري بدائي وغير متفق وروح العصر ، وكل فن أوربي ، مهما كان فيه من بعد ونفاد مع نزعاتنا وتقاليدنا المصرية ، بل ومع آدابنا المرعية والعرف الانساني ، حضارة وتمدين . وشملت هذه الحال فتياتنا وفتياننا ، فألسنتهم لاتتحرك إلاّ بكل ما هو أوربي غربي ، وقلوبهم لا تهتز إلا لكل ما هو بعيد عن المصرية .

ولا شبهة في أن المعسكرين يتهيآن الآن : الأول للعمل على خراب الريف ، والثاني لا حول له ولا قوة ، فسوف ينهزم ليترك الريف خراباً . وإنما يخرب الريف بخراب القلوب التي يجب أن تؤمن بأن الريف هو مصر ، وان مصر هي الريف ، وان المدن أسواق

(١) Piccadilly Circus : ميدان في لندن

لهذا الريف لا أقل ولا أكثر . انما نخرب الريف بأن نحب المدينة ونهجر الريف ، فكأننا هجرنا مصر ، ولا مخرج لنا من هذا الا بأن نصل ثقافتنا الحديثة بثقافتنا التقليدية ، فيكون المصري فلاحاً مصرياً روحاً ، ونزعةً وخلقاً ، ثم قاضياً وعاملاً وطبيباً ورجل ادارة من بعد ذلك . يجب أن تكون ماهيتنا مصرية وأعراضنا أوربية ، لا أن نعكس الآية بأن نعمل أولاً على محو مصريتنا . فاذا تمّ لنا ذلك رحنا نتيه بأننا أتينا بأعراض أوربية ولقحنا بها ذوات لا ماضي لها ، وبالأحرى لا ماهية لها .

تلك مقدمات لا بدّ منها اذا أردنا أن نبحث حالتنا الاجتماعية من جهة علاقتها بالتعليم، وسنرى كيف يمكن أن نستفيد منها .

***

أظهرت في العبارات السابقة الوجوه التي تربط بين التعليم والحالة الاجتماعية ، وعددت كثيراً من التأملات التاريخية التي قد يكون لها اتصالاً ، كبيراً أو صغيراً ، بالحالات الجديدة التي تكتنفنا ، غير أن الاقتصار على تعديل وجوه الارتباط بين التعليم والحالة الاجتماعية ، والقول بأن التعليم يجب أن يتجه اتجاهاً اجتماعياً، أمر يجب أن يعزز باظهار المخاطر الشديدة التي يتعرض اليها كياننا الاجتماعي ، من جراء الفصل بين سياسة التعليم ، وبين ملابستها الاجتماعية .

ولقد ظهر في العهد الأخير أن القائمين بأمر التعليم قد اضطروا في مواقف عديدة أن يتجهوا الى معالجة بعض الأمور علاجاً قائماً بعض الشيء على طبيعة الحالات الاجتماعية . واني لآسف إذ أقول إنهم لم ينجحوا فيما قصدوا اليه . وليس السبب براجع الى قصور منهم، أو تقصير عن أداء واجباتهم كاملة ، وإنما يرجع في الحقيقة الى أن سياسة التعليم الحاضرة لا تواتيهم بكل الأسباب الضرورية التي تمكنهم من تنفيذ برامج تتفق وما تتطلب الحالة الاجتماعية من صنوف العلاج . ولا أريد أن أعدد هنا حالات بذاتها ، وإنما أريد أن أبحث في مجمل الظواهر التي تترتب على الفصل بين سياسة التعليم والملابسات الاجتماعية ، قدر ما تتيح لي تجاربي القليلة

كتب الفيلسوف هربرت سبنسر في أواخر القرن الغابر مقالاً عنوانه « الكائن الاجتماعي » شبّه فيه بنية الاجتماع الانساني بكائن متعضّن ، وأخذ يقيس الظواهر المتقابلة فيهما ويوازن بين حالات خاصة في جسم الفرد وجسم المجتمع . ولا شك في أن هذا الفيلسوف الكبير قد غفل عن أمر ذي بال ، جعل بحثه هذا محتاجاً الى كثير من التحوير بل لا نبالغ إذا قلنا ان غفلته عن ذلك الأمر ، قد أثرت في النتائج التي حاول الوصول اليها فجاءت مفككة غير موصولة ولا مؤدية الى فكرة محدودة ينتهي اليها البحث . ذلك بأن بين الحي والكائن الاجتماعي فروقاً رئيسية تميز بينهما تمييزاً لا يقف عند حد الظواهر ، وإنما يتعدى الى التكوين الوظيفي فيهما . وقد يعلم الذين يدرسون علم الاحياء ، أن الحيّ يتكوّن من خلايا دقيقة هي وحدات بسيطة التركيب تحتوي على نواة هي سر الحياة . ولكن تجمّع هذه الوحدات البسيطة التركيب ينتج حيًّا عويص التركيب معقد التكوين جهد ما تتخيل . ذلك في حين أن الكائن الاجتماعي إنما هو كُلٌّ بسيط التكوين ، يتركب من وحدات غاية في التعقيد . وعلى معرفتك هذا الفرق الوظيفي ، يتوقف وصولك الى النتائج الصحيحة . فالخلايا لا قوام لها ولا حياة بغير اندماجها في بنية الكائن الحي . أما الوحدات (الذوات العاقلة) التي يتركب منها الكائن الاجتماعي ، فكلما كانت أكثر استقلالاً عن ذلك الكائن برز أثرها وتميزت وظيفتها واستبانت قيمتها ، ورجحُل فردها ، وأصبحت قوة قادرة على التأثير في الكائن الاجتماعي بما يحفظ حياته الاجتماعية ، ويحرّكه نحو الرقي الاجتماعي ، ويبث فيه روح التطلع الى الارتقاء المدني ، وبالجملة على جعله كائناً اجتماعيًّا ممتازًا بأثره العلمي في الحياة . ذلك على الضد مما لو اندمجت هذه الوحدات العاقلة في بنية الكائن الاجتماعي . فانها إذ ذاك تفقد استقلالها وقوتها على التأثير بالعمل على رقي الجماعة ، لأن اندماجها هذا إنما يسلبها القدرة على التفكير والتأمل في حقائق الأشياء ، ويفقدها أخلاقها الشخصية ، وبوجه عام يدعها فيما يسميه الاجتماعيون عقلية الجماهير .

هذه حقيقة أولية ، على ما فيها من تعقيد وحاجة الى الفهم من الضروري أن نعيها وأن نجعلها نصب أعيننا كلما فكرنا في وظيفة التعليم باعتباره عاملا من عوامل استقرار الحالات الاجتماعية في كل أمة من الأمم . أما وقد وعيناها فلنا أن نتساءل : أفي التعليم عندنا بإخراج

رجال فيهم من الاستقلال الخلقي والعقلي ما يجعلهم في المستقبل قوى مؤثرة في الكائن الاجتماعي ، أم على العكس من ذلك ، يخرج رجالاً قنعاً يكتفون من الحياة بالاندماج في جسم الكائن الاجتماعي ، فيظلون طوال أعمارهم مغمورين في عقلية الجماهير ؟ وإني لآسف إذ أقول أن تعليمنا بعيدعن أن يخرج رجالاً مستقلين على النمط الذي تتطلبه طبيعة الحالات الاجتماعية الجديدة ، التي أخذت تشعرنا بأننا مقدمون على انقلابات فكرية خطيرة.

إذاً فواجب التعليم ينبغي أن ينحصر في إخراج رجال مستقلين بعيدين عن التأثر بروح الجماهير . وتكوين استقلال الفرد ، يجب أن يكون بداءة التعليم ونهايته . أما العمل على شحن العقول بشتى المعلومات وتكوين ملكات خاصة في الأدب والفن ، فلن يكون لها من أثر في الحياة ، ولن تقوّم من عوج الكائن الاجتماعي ، ما لم يسبقها الاستقلال الذاتي ، وتدريب الملكات الخاصة على مماشاة ما تتطلبه مقتضيات ذلك الاستقلال .

ولقد أظهرنا من قبل أن ابن الفلاح أكثر استقلالاً في الناحية العملية ، من المتعلم الذي فقد استقلاله الذاتي ، بحكم الظروف التي نشأ محاطاً بها . غير أن استقلال الفلاح العامل استقلال ناقص ، اذ هو استقلال أشبه بالاستقلال الحيواني منه بالاستقلال الانساني ، ذلك بأن عدته في هذا الاستقلال تقوم على قوة عضلاته وعلى صبره واحتماله ورضاه بمحيطه الذي يعيش مكتفياً به . وعامة ذا ليس فيه شيء من مؤهلات الاستقلال الانساني ، وانما هو استقلال يشارك فيه الفلاح كثيراً من الحيوانات . وعلى ذلك نجد ان ما عندنا من مكملات الاستقلال الفردي عند الفلاح ، تنقصه الناحية الثقافية التي تمكنه من أن يصبح ذا أثر عملي في تكييف حالات الكائن الاجتماعي . ولكن هذا الاستقلال مهما كان فيه من ضروب النقص فهو استقلال على كل حال . أما المتعلم المتعطل فحالته تناقض هذه الحال . فان تعليمه لم يمكنه من أن يكون مستقلا من ناحية الثقافة ، في حين أن نشأته ومحيطه قد سلباه ناحية الاستقلال الأخرى .

***

أما الأسلوب الذي يجب أن ينحى في التعليم حتى يكون أداة صالحة لتخريج رجال مستقلين ذوي أثر في تكييف حالات الكائن الاجتماعي ، فسنفرد له صفحات خاصة . وسنقصر

كلامنا الآن على المخاطر التي يتعرض لها كياننا الاجتماعي من وجود فلاحين استغلوا حيوانياً ومتعمين فقدوا كل ضروب الاستقلال .

***

على الرغم من أن الأخطار التي يتعرض لها مجتمع تناصرت عليه كل هذه الظواهر الكثيرة المتعددة ، فإن أعظم هذه الأخطار وأشدها أثراً في مستقبله ، إنما حدث بما يدعوه الاجتماعيون « التطفل الاجتماعي » . والتطفل الاجتماعي حالة ترهق فيها طبقات غير عاملة طبقات عاملة بمطلوبات حياتها ، ولهذا التطفل مظاهرُ عديدة أخبثُها أن تكون الطبقة المتطفلة هي بذاتها صاحبة السلطة العليا في المجتمع ، كما حدث في أوربا في خلال القرون الوسطى ، وكما هي الحال في كثير من ممالك الشرق في حالته الحاضرة . والويل لمجتمع تسود فيه هذه الحال .

التطفل حالة طبيعية لا سبيل إلى نكرانها . فهنالك حيوانات تتطفل على نباتات ، ونباتات تتطفل على حيوانات ، وقد يتطفل حيوان على حيوان أو نبات على نبات . فهو ظاهرة تكاد تشمل كل نواحي العالم الحيّ ، وتحكم في الكثير من مظاهره الجلى . غير أن نظرة واحدة في هذه الحقيقة الطبيعية ، تظهرك على أن التطفل حيثما كان ، وأيّاً كانت وسيلته ومظاهرهُ ، لن ينتج إلاّ هدماً في الحياة ، ولن يبرز إلاّ فساداً ، ولن يؤدي إلاّ إلى إرهاق شامل في القوى الحيوية ، تختلف درجاته ومظاهره ونتائجه باختلاف الظروف ، وقد يستطيع عالم طبيعي أن يحصي تلك الظروف التي يتجلى فيها عمل التطفل في عالم الأحياء . فإن ذلك من الأشياء التي يستعصي على العلم تحديد مظاهرها عامة وخاصة ، وفعل كل متطفل في مختلف الظروف ، على كل متطفل عليه في متباين الحالات . وإنما يستطيع الأحيائي أن يدرس ظواهر التطفل في حالات يقف عليها ، وأن يدرس أثر الحي المتطفل في بنية الحي المتطفل عليه ، محصياً في كثير من الحالات أوجه العلاقة بينهما ، وتأثير دورة حياة الحي المتطفل في حاضنه .

ولن يعدو العالم الاجتماعي هذه الحال عينها ، فليس في مستطاعه أن يحصي أوجه التطفل الاجتماعي في مجتمع بعينه ، ولا أن يدرس الحالات درساً توفر على دقتها وتدرجاتها التي

تكفل له الوصول إلى نتائج مقطوع بصحتها قطعاً تاماً . والعالم الاجتماعي أضعف وسائل من العالم الطبيعي . فان هذا بين جدران معمله ، يستطيع أن يحصر الحالات ويحدد الظواهر في حين أن زميله الاجتماعي ، إنما يتأمل من حالات عامة غير محصورة ولا محددة ، تحديداً تجعل الحكم القاطع على أصولها وظواهرها أمراً سهلاً هيناً . غير أن هذا كله لن يحول بين الباحث الاجتماعي وبين تمييز الحالات الكلية التي يتخذ درس مظاهر التطفل الاجتماعي وسيلة إلى اكتشافها .

من الحالات الكلية في التطفل الاجتماعي ، بل ومن أظهر تلك الحالات أثراً في الجماعات الحديثة عامة ، وفي مصر خاصة ، تسلط غير ذوي الكفايات ، وإن شئت فقل المتطفلين ، على موارد ما تنتج الأيدي العاملة من ناحية ، وعلى انتاجها نفسه من ناحية أخرى ، من غير أن يكون لهؤلاء المتطفلين أي ضلع في تكوين المورد أو في الانتاج . ومن هنا تحدث حالة من حالات التطفل الاجتماعي تستنفد فيها أيدٍ متعطلة ثمرات الجهود التي تبذلها أيد طلقة ، بغير أن تنال الأيدي العاملة من ثمرات جهودها ما يكفي لحفظ حيويتها أو قدرتها على العمل والانتاج . فان من شأن المتطفل أن يجتهد في استغلال حاضنه بكل صور الاستغلال وأن يبلغ من الانتفاع بحيويته جهد ما يستطيع ، وكلما قلت قوى المقاومة في الحاضن ، ازداد المتطفل شرهاً وبأساً ، حتى ينتهي الأمر بما يسميه الاجتماعيون « بالتنكس الاجتماعي »[1] وهي حالة تتساوى فيها طبقات المجتمع لا من حيث الكفايات العلمية ، ولكن من حيث العجز عن العمل المنتج . وما لهذا الأمر من نتيجة إلا الفوضى الغامرة ، ولا ينكر أحد أن في مجتمعنا هذه الظاهرة الخبيثة . فالأيدي العاملة لا تنال من منتوج عملها ما يكفي للاحتفاظ بحيويتها ، والأيدي المتعطلة تبدد ثمرات تلك الجهود ، وعلمُ ما يترتب على ذلك عند الله .

ومن تلك الحالات هجر الريف والعيش في المدن . ولقد بحث هذه الظاهرة كثير من الكتاب منهم : ادمون ديمولان الفرنسي ، والأستاذ ادين ديمان الانجليزي في بحوث مستفيضة عالجوا فيها الحالات التي نشأت في فرنسا وانجلترا ، وعنوا بعض الشيء على

---

(1) Social Degeneration

حالات نشأت في غيرها من البلدان في أوربا . ولا جرم أن هذه الحالات تتشابه ، فالأسباب التي تدعو الفرنسي أو الانجليزي الى هجر الريف والاقامة في المدن ، أو بالأحرى حب التحضّر (بمعنى المعيشة في الحواضر) تكاد تكون نفس الأسباب التي تحمل المصري على أن يفعل ذلك . غير أن النتائج تختلف باختلاف البلدان ، على مقتضى ما في كل شعب من الاستعداد والصفات ، وفي الأكثر على مقتضى الثقافة التقليدية التي يختص بها كل شعب من الشعوب .

ولسوف نبين عن فكرتنا في أثر الثقافة التقليدية في الكيان الاجتماعي لكل أمة من الأمم . ونكتفي الآن بأن نقول بأن شعباً كالشعب المصري ، الزراعة ثقافته التقليدية منذ أبعد عصور التاريخ ، لا بدّ من أن يتأثر بزيادة الميل الى التحضر ، تأثراً عظيماً لا يحسه شعب آخر ثقافته التقليدية غير زراعية . بل على العكس من ذلك ، أعتقد أن الشعوب التي تكون ثقافتها التقليدية صناعية أو تجارية ، يجب أن تحتمي بحياة التحضر صيانة لصالحها . أما تحضر شعب ثقافته التقليدية الزراعة ، فتلك هي الطامة الكبرى على كيانه الاجتماعي ، وتلك هي الثغرة العظيمة الى أبشع صور التطفل الاجتماعي .

ونحن نعلم علم اليقين بأن مدننا المصرية مدنٌ غير صناعية بالمعنى المفهوم من ذلك في أوربا . بل أعتقد ، وأظن انني اعتقد بحق ، أن مدننا ليست إلاّ أسواقاً تستهلك فيها منتوجات الريف ، وهذه الحقيقة وحدها كافية لأن تظهرنا على أن ميلنا الى التحضر ، مع التعطل عن العمل ، يرهق المنتج ويرهق السوق المستهلكة ، لأن المتعطل في الواقع عبء على الجمعية ، ذلك بأنه قوة مستنفدة لا قوة منتجة من ناحية ، ولأن الحاجات التي يستنفدها لا ينتج ما يقابلها لصالح الجمعية من ناحية أخرى . وبذلك يصبح المتعطل عبئاً على الحاضرة التي يسكنها ، وعبئاً على العناصر المنتجة معاً . ومن هنا يتضاعف تطفله ، إذ يصبح متطفلاً باعتبارين ، الأول أنه يزاحم أهل المدن ويشاركهم أرزاقهم من غير انتاج من ناحية ، والثاني انه يرهق العناصر العاملة في الريف بأن يستهلك ولا ينتج ، وبالأحرى بأن يأخذ ولا يعطي .

ومن تلك الحالات ما يسميه الاجتماعيون « التخم الاجتماعي » — Plethora ، ولا اريد هنا أن أطنب في تعريف « التخم الاجتماعي » ولا أن أناقش في مختلف التعاريف

التي وضعها المؤلفون الذين أتيح لي الاطلاع على مؤلفاتهم ، وإنما أقتصر على ذكر حالات يستطيع القارىء أن يدرك منها ، مطبقة على حالات تقوم بين ظهرانينا ، ما يقصد بالجشع الاجتماعي .

وعندي أن أخبث ما يؤدي اليه الجشع الاجتماعي من تكييف عقلية طبقات خاصة في مجتمع ما بمقتضياته ، إنما ينحصر في أن تتطفل جماعات ، لا أفراد ، على جسم الكائن الاجتماعي وقد تلبس الجماعات التي تنتابها سورة الجشع الاجتماعي صوراً مختلفة ، فمن اتحادات تجارية الى اتحادات صناعية ، الى جمعيات علمية أو اقتصادية أو سياسية تتخذ التأثير على عقلية الجماهير بمختلف الوسائل ، طريقاً تسلكه الى غرضها الذي ترمي اليه ، والذي يجعلها جديرة بأن تنعت بأنها جماعات مصابة بجنون الجشع الاجتماعي . أما ذلك الغرض فينحصر في أن تنال من الجمعية أقصى ما يمكن أن تصل اليه من الربح المالي أو النفوذ أو السلطة أو الجاه أو الحكم ، بأقل جهد ممكن أن يبذل ، أو تضحية يضحى بها من ناحيتها .

وفي مثل هذه الحالات تتضاعف خبائث التطفل الاجتماعي ، بأن يصبح تطفلاً مركباً ، لا تطفلاً بسيطاً . ونعني بالتطفل « المركب » أن هذه الجماعات المصابة بجنون الجشع الاجتماعي ، يكون فيها عنصر خاص يعيش متطفلاً على جسم الجماعة نفسها . ذلك العنصر هو عنصر انتهازي لن تسلم منه جماعة أصيبت بذلك المرض الخبيث . فكما أن الجماعة تتطفل على جسم المجتمع ، يتطفل ذلك العنصر الذي هو « واجب الوجود » فيها بما يقتضي تكوينها النفسي ، على بقية عناصرها .

وتسير قافلة المتطفلين ، ولكن الى البوار الصرف . مثلها كمثل حبيبات زرعت على مادة هلامية في زجاجة اختبار في معمل من المعامل ، فإنها تتكاثر ثم تتكاثر ، حتى إذا ملء فراغ الزجاجة واستحالت المادة الهلامية أجساماً حية ، انتكس الأمر ، وبدأت الأحياء تنحدر إلى الهلاك المحتوم .

هذه العاهات موجودة في حالات نشاهدها قائمة من حولنا . فهل يمكن أن نتخذ التعليم أداة إصلاح نتقي بها بعض ما يكتنفنا من شرور وخبائث ؟ وهل يمكن للتعليم أن يؤدي إلى الأجيال المقبلة وسائل إصلاح تقوى على رفع عن كواهلهم بعض ما تنوء به من متاعب ؟ أظن

أننا نستطيع أن نجيب بالايجاب ، وأن نقول موقنين « نعم » ، لو أن فينا رجالا ، وفينا رجولة .

أرى واجباً عليّ قبل المضي فيما سوف أسوق الكلام فيه ، أن أبدأ باستدراك لا بدّ منه . فقد يعيب عليّ بعض من المفكرين أني أنكر فيما كتبت ناحية ذات شأن من نواحي الحياة في مصر لم أعرها التفاتاً . وقد يعتقد هؤلاء أن لتلك الناحية خطرها في صبغ الحالة الاجتماعية في مصر بصبغة خاصة . وقد يشيرون إلى الأزهر . ولو أنهم أشاروا إلى غير الأزهر إذن لكان لما يعيبون به عليّ من الوزن ، قدر غير يسير . أما وانهم قد يعنون الأزهر ، ويقولون بأنه معسكر ثالث من معسكرات العوامل المؤثرة في الحالة الاجتماعية في مصر ، ينبغي لنا أن نحسب حسابه ، وأن نتناوله بالتحليل والنقد ، وأن نزن أثره في تكييف الحالات الاجتماعية ، فأكبر ظني اني ان أسلم برأيهم مهما ساقوا في سبيل اثباته من بيّنات . ذلك بأن بيّنة واحدة تكفي لهدم جميع ما يقيمون من دلائل . فان القوى التي تؤثر في حالة اجتماعية بعينها : إنما هي القوى الموجبة لا القوى السالبة ، والأزهر ، ولا شبهة ، قوة سالبة ، قوة اتجهت بكل ما فيها من عوامل الحياة الى الأخرويّات لا الى الدنيويّات .

وأنت ترى في كل الأطوار التي تقلبت فيها الأمم منذ بداءة العصر الانتاجي الحديث ، أن القوى السالبة فيها انحصرت في فئتين : الأولى رجال الدين ، والثانية رجال الحكومة ، وهما بما فيهما من صفات السلب والمحافظة ، كانتا في كل الحالات درئة طالما تحت حسم المجتمع من كثير من الهزات العنيفة والانقلابات الخطيرة التي يجنح اليها الغلاة من المصلحين أو السياسيين ، وان لهذا الموضوع نظرا آخر غير هذا النظر قد يتاح لنا فيه أن نبحثه بحثاً أوفى .

فرغنا من الكلام في التعقل الاجتماعي وأحطنا ببعض ظواهره ، وأثبتنا أن هذه الظاهرة تنحصر في نظام مجتمعنا كما تنحصر الدودة في الحب . والآن ننتقل الى ظاهرة اجتماعية أخرى ، لا تقل عن ظاهرة التعقل الاجتماعي فعلا وأثراً . تلك ما أسميه ظاهرة « الرجعية » ولا أعني بها رجعية فكرية أو سياسية أو غير ذلك ، فلو انها كانت من هذا النائح لهان الخطب . ولما أثرنا كبير اهتمام [illegible] ذات [illegible] أعتقد أن بعض ظواهر الرجعية ، كالرجعية

الفكرية أو السياسية ، وما يجري مجراها ، تحمل في تضاعيفها أسباباً تولد قوى اوتقائية وإنما أعني بها الرجمية الاجتماعية ، وأكبر ظواهرها عزوفنا عن التفقه بفقه ثقافتنا التقليدية .

ولا مرية في أننا نحتاج الى تعريف هذه النظرية الجديدة التي ندوقها اليوم ، لتكون أساساً في علاج حالات اجتماعية بعينها . بل نقول إن تبعدنا عن درس هذه النظرية ، سببا كان من الأسباب الرئيسة التي هيأت المقتضيات الأولية للشعور بأننا قد أقدمنا على أزمات اجتماعية ربما أصبحت في المستقبل بالغة منتهى الخطورة .

أما ما نعني « بالثقافة التقليدية » فمجموعة الحالات والملابسات التي ينشأ شعب من الشعوب مكتنفاً بها من حيث طبيعة الأرض والاقليم ، وما يتطلب ذلك من العكوف على فن خاص من فنون الحياة . وبمعنى أوسع تدل الثقافة التقليدية على العناصر التي ورثها شعب من الشعوب على مدى الأزمان ، من طريق التأثر الطبيعي بالبيئة والمحيط ، كما تدل على مجمل ما ثبت في عقليته بإلقاح السلالي من عادات وأساطير وعلوم وآداب ، نشأت بنشأته في مرباه الأصيل ، وعلى الجملة نقول إن الثقافة التقليدية لشعب من الشعوب ، إنما هي في الواقع جماع ما ورث من صفات حيوية ومعتقدات وفنون من أسلافه الأولين .

وما كان لشعب من الشعوب أن يحاول الافلات من أقطار ثقافته التقليدية الأولية بالفشل المحقق فيما يحاول . ذلك بأن الثقافة التقليدية ، هي الأصل الذي يرتكز عليه الطبع الماثل في أخلاق الأمم ، وطرق سلوكها في الحياة . وما قولك في ثقافة يرتشفها الطفل مع ما يرتشف من لبن أمه وهو رضيع ، ويشب مكتنفاً بها إذا يفع ، ويثق بفنونها اذا تقى ، ويلزم بها إذا اكتمل ، ويموت وهي مرتسمة في تصوراته جميعاً إذا هرم ، لا مرية في أنها تصبح جزءاً من طبعه ، وركناً من أركان نفسه ، بل إن شئت فقل إنها الركن الأصيل في حياته النفسية والعقلية ، وما عداها توابع لها ولواحق بها . وإنما تتأثر التوابع بالأصل ، وتتكيف اللواحق بالأرومة . فما من ثقافة حديثة تضاف الى ثقافة تقليدية الا وتكيف الدخيل تكيفاً يتابع فيه ما يحتاج اليه الأصيل من ملابسات . مثل ذلك أن الطبع المصري ، وإن شئت فقل « بالمصرية » ، ان تنسج منها الأوربية شيئاً إن هي احتكت

بها، وأنما تتكيف « الاوربية » بعوامل المصرية ، إن هما تنافستا في ميدان واحد . وليس في ذلك أي خطر على كياننا التقليدي . ولكن الخطر كل الخطر أن نضعف من مصريتنا بالبعد عن ثقافتنا التقليدية ، فتكمن في تضاعيف النفس ولا تظهر الا ضعيفة منهوكة ، ونقوي من « الاوربية » فنأخذها غير مكيفة بمقتضيات ثقافتنا التقليدية . ناهيك بأننا لسنا أوربيين بالدم والتقاليد ، فلا نستطيع أن نفهم من روح الاوربية على ما يفهمها الاوربي الا ظواهرها الكاذبة، فنصبح وقد قمنا مصريتنا من ناحية ، ولقحنا عقولنا بالاوربية من جهة أخرى . وما كل هذا الا طلاء خادع ، ومن ورائه تختفي الحقيقة التي يجب علينا جميعاً أن نفطن اليها ، وأن ندرسها أوفر الدرس ، وأن نكب على تفهم روحها أقوم تفهم ، حتى نستطيع أن نهيىء للأجيال الآتية سبيل التكيف بروح العصر ، تكيفاً مطابقاً لثقافتنا التقليدية ، فنخطو بثبات نحو حالات اجتماعية أثبت من حالتنا الحاضرة . وفيما تقدم من شرح ، مجمل ما نعني « بالرجعية الاجتماعية » : فهي قمع لمقتضيات التكيف بثقافتنا التقليدية من طريق الفصل بين هذه الثقافة الموروثة ، وفنون الحياة في العصر الحديث

تتصل ثقافة الشعوب التقليدية اتصالاً وثيقاً بحالاتها المعيشية أولا . فاذا استكملت هذه الثقافة الاصس المعيشية التي تعين الشعوب على البقاء ، أثرت هذه الثقافة تأثيراً آخر في مزاج الشعب ، نهايته أن تتكيف فيه أشياء ثلاثة هي في الواقع ظواهر هذه الثقافة . الدين واللغة والفن ، وفي هذه الأشياء جماع ما يتجلى لناظريك في الأمم من الخصائص الأخرى ، كالخلق والحالات النفسية إلى غير ذلك .

ولا بدّ لنا من أن نضرب بعض الأمثال لنفصح بعض الشيء عن حقيقة هذه النظرية . فالبداوة مثلاً ، ثقافة تقليدية لكل القبائل التي تعيش متبدية ، وجميع ما يتصل بالبداوة من الأسس التي تقوم عليها ناحية من نواحي الحياة في أهل البدو . والبداوة لأهل البادية بداية الحياة ، لأن فيها تتجلى روح القبيلة التي بها تحتفظ الجمية ببقائها ، وتصون كيانها ، ومن مجموع التصورات والإدراكات التي تتمثل لأهل البادية ، تنشأ الفكرة الدينية ، ثم تنشأ اللغة ، ثم ينشأ الفن ، ومن بعد ذلك تتحور الأخلاق ، فتأخذ طابعاً خاصاً ، ومن ثمت يتكون قانون العرف البداوي ، وهلم جرا ، فهل من المستطاع مثلاً أن تنفث جمعية

طبيعتها البداوة عن كل ما ورثته على مدى الأجيال ؛ وتنسلخ عن كل ما انتقل اليها عن أسلافها الأقدمين ، فتلبس من الأخلاق ثوباً جديداً ، وتتبدل من التصورات والأفكار والأخيلة والعقائد واللغة والفن وغيرها ، بما لا علاقة له بثقافتها التقليدية ، ثم تستطيع بعد ذلك أن تحتفظ بكيانها الأصيل، من غير أن يهز ذلك التغير الطارئ ، أعماق وجودها هزاً عنيفاً شديداً ؟

كذلك الحال في أمة أخرى ثقافتها التقليدية صناعية كانجلترا أو فرنسا مثلاً . فان انفكاك أمة منهما عن الصناعة ، معناه تحطيم لروحها الموروث ، بل واسكل ما تقوم عليه حياتها ، أدبية أو مادية ، من القواعد الأصيلة في تنميتها وغرائزها . وأظن أن المصريين لا يخرجون عن مقتضى هذه القاعدة . فان لمصر ثقافتها التقليدية ، وهي الثقافة الزراعية التي ورثناها بحكم وجودنا على ضفاف النيل . وواجبنا كأمة رشيدة أن نقيم كياننا أصلاً على أساس هذه الثقافة الموروثة ، نكملها بمقتضيات ما يتطلب هذا العصر من ضروب الثقافات الأخرى . أما عكس هذه الآية ، وذلك ما نتجه الآن مع الأسف ، فنهايتها الخراب العاجل والدمار الشامل .

إن ما يزرع من أرض في هذا الوادي الخصيب في هذا الزمن ، جزء قليل مما يمكن استغلاله ، ولكنه على قلته لا يستغل الاستغلال الوافي ، ولهذا أسباب يطول بنا شرحها ، وإنما نذكر ذلك لنقول بأن كل متعطلي هذا الزمان . إنما هم متعطلون بحكم الثقافة التي تلقوها ، وبحكم الظروف التعليمية التي نشأوا معوّدين بها ، وأن بلاداً كمصر تستطيع أن تعضد من السكان ضعف ما تعضد الآن ، من العجيب أن تقوم فيها مشكلة تعرف بمشكلة التعطل وأن تؤلف في سبيلها اللجان وتعصر الأفكار ، وتسهر الأعين الليالي الطوال ، ونصف الأرض المزروعة فيها يكاد يكون بوراً . والنصف المزروع لا يغل أكثر من نصف ما يجب أن يغل ، إذا أحسن القيام عليه بالطرق العلمية الحديثة ، وأكبر ظني أن السبب المباشر في قيام هذه الحال ، إنما يرجع الى أننا نسينا أن لنا ثقافة تقليدية ، يجب أن تكون أساس الحياة في هذا الوادي . وأنه يجب أن تقوم سياسة التعليم أول شيء ، على فكرة الاتصال بثقافتنا التقليدية .

لقد مضينا حتى الآن نقيم قواعد التعليم على النظريات ، لا على طبيعة بلادنا . لهذا نرى أن كل النتائج قد اتجهت اتجاهاً سلبيًّا ، لا اتجاهاً إيجابيًّا . وعكس ذلك ما نطلب أن يكون .

حدثت في مصر مشكلة عرفت بمشكلة المتعطلين من المتعلمين ، وما من سبب لهذه المشكلة في الواقع إلاَّ السياسة التي جرى عليها التعليم في بلادنا ، بالفصل بين ثقافة أولادنا التي يتلقونها بين جدران المدارس ، وثقافة آبائنا الأقدمين . وحدث في مصر أن انشقت معسكرين لا اتصال لأحدهما بالآخر ، معسكر المتعلمين المتعطلين الذين لا اتصال لهم بثقافة بلادهم التقليدية ، ومعسكر الفلاحين الذين انصلوا كل الاتصال بثقافة بلادهم الأصلية من غير أن يلقحوا بشيء من مقتضيات الحياة في العصر الحديث ، وبدأت في مصر روح التبرم بالحياة المصرية ، تلتق منها كل يوم ألواناً مما ينتج على يد المتعلمين الذين إذا لم تعوزهم الهمة إلى العمل ، فقد يعوزهم المجال الذي يعملون فيه ، بقدر ما هيأهم التعليم النظري الذي عكفوا عليه ، ولسوف تتقدم خطوة بعد أخرى متمادين في العمل على زيادة معسكر المتعطلين ، ما دمنا نعكف على تعليم أولادنا على أساس النظريات لا على أساس العمليات ، وما دمنا نخرج رجالاً لا يعرفون عن طبيعة بلادهم شيئاً . ولن أكون مبالغاً إذا قلت إن ابن الفلاح الذي يتخرج في كلية من الكليات العليا ، ليس بأكثر علماً بطبيعة بلاده من زميله ابن المدينة الذي يتخرج وإياه في معهد واحد . فإذا لم يجدا لهما مرتزقاً أصبحا صنو بطالة ، ولم يمتز ابن الفلاح على ابن المتحضر بشيء مما امتاز به جدودهم من أهل الريف ، من قدرة على الانتاج ، والعيش بما تغل سواعدهم من ثمرات الأرض .

ويخيل اليَّ ، وربما كنت على كثير من الحق فيما أتخيل ، أن الخطأ الذي نلحظه في سياسة التعليم في بلادنا ، غير قاصر على قمع ثقافتنا التقليدية أن يكون لها أثر في تكويننا العقلي والخلقي ، بل إننا أضفنا إلى هذه خطيئة أخرى ، هي أننا عملنا دائماً على تضخيم المعلومات التي يتلقاها الطلبة في مدارسنا الثانوية والكليات . فقد يخرج المتعلم الى ميدان الحياة العملية بعد حياة أمضاها في جوّ من النظريات الصرفة ، وهو يعتقد انه قد ملىء علماً بالحياة ، ثم لا يلبث أن ينكشف له الحق ، وإذا به يرى أن كل ما يعرفه من نظريات العلم

والأدب والفن ، لا يكفيه رزق يومه ، ولا يغنيه عن الإكباب على ناحية أخرى من نواحي الحياة العملية يدرسها لتكون له في الحياة عونًا على تحصيل الرزق . ولا شك أن ذلك يحدث ارتجاجًا عظيمًا في حياة شاب ملأه الأمل في الحياة ، والزهو بما تجمع في رأسه من المعلومات . وما من ريبة في أن هذه الصدمة المعنوية ، لها أثرها البالغ في سلوك الشاب وتفكيره ، ربما لازمه طوال حياته .

يعكف الشاب المصري بين جدران معهده على ناحية نظرية من العلوم بعيدة عن تجارب الحياة ، ويتلقى أنواع المعارف المختلفة ، ويقضي مكبًّا عليها عمرًا ، حتى يكون له نظرة خاصة ويتجه بفكره وقلبه اتجاهًا معينًا ، وينشىء في عقليته قيمًا للأشياء ، وفنًّا ينظر من طريقه في الحقائق . وعلى الجملة يتخيل أنه يتكوّن من طريق معارفه تكوينًا يؤهله لأن يكون وحدة مستقلة في جسم اجتماعي . فإذا استبان له الواقع ، وواجه الحياة بما استجمع من معارف ، فعلم أن للحياة طريقًا آخر غير الطريق الذي صرف فيه عمره ، وأن لها قيمًا أخرى غير القيم التي يؤمن بها ، وأن لها فنًّا غير فنه الذي ينظر من طريقه في حقائق الوجود ، انقلب على الماضي ثائرًا ، ومن المستقبل يائسًا ، وخيل إليه أن المجتمع جنى عليه ، فسلبه سلاح العمل ، وجرده من عدة الهجوم والدفاع في ميدان المنافسة الاجتماعية . وما بالك بهذا الشاب نفسه ، إذا هو أراد أن يرتد إلى مصريته فيصبح فلاحًا كأبيه أو جده ، وأن يتصل مرة أخرى بثقافة بلاده التقليدية ، فيتضح له أن علمه بطبيعة بلاده ضئيل ، وأن علاقته بطريقة الحياة فيها لا تواتيه بالعدة الكافية للحياة في وسط مصري أصيل ، الفلاح سداه ، والفلاحة لحمته ؟

من الأخطاء التي لا ينبغي لنا أن نغفل عن وزنها وزنًا صحيحًا ، أن تعليمنا الأدبي في الكليات ينقل إلى الأذهان صورًا من الأخلاق ، وفنونًا من السلوك ، ومذاهب من الفلسفة النفسية ، تختلط في عقليتنا اختلاطًا عظيمًا ، حتى تتكوّن منها مقاييس جديدة بعيدة جد البعد عن المقاييس الخلقية والسلوكية التي يؤمن بها الفلاح الساذج . فإن عصور الظلم والاستبداد التي عانى فلاح مصر في خلالها الأمرّين ، وتوالي الدول في الحكم على ضفاف النيل ، قد طبعت الخلق المصري بطابع خاص ، وصبغته بصبغة خاصة ، ويجب أن يعنى بدرسها أولى الدرس المصري المتعلم ، وأن يكب على تفهمها كل الإكباب ، قبل أن يظن أنه قادر على

أن يعايش ذلك الفلاح الخشن الجاهل ، وأن يعلم في أول ما يجب عليه أن يعلمه ، أن جهل الفلاح من جهة العلم بالنظريات ، قد عوضته عنه الطبيعة ذكاءً حاداً وقدرة على التحايل وفطنة في ادراك الحقائق ، وأيقظت فيه قوى العقل الباطن إيقاظاً شديداً ، حتى يكاد يكون عند بعضهم إلهاماً في توقع الأشياء وحدوثها . أضف الى ذلك أن طبيعة البلاد قد ثقفته بثقافة ورثها على مدى العصور ، ثقافة أحيت فيه روح اليقظة ، يتلقى بها الأحداث مكتمل الهمة ، ثابت القلب ، قوي الجنان ، عظيم الثقة بنفسه . فان بلاداً تتوالى فيها دورات الزراعة كبلادنا ، ويفيض فيها النيل في مواعيد محدودة ، قد غرست في نفسه بالتجربة أن الحياة فرص يجب انتهازها ، وعلمته أن اهمال ساعة أو يوم قد يفوّت عليه رزق عام . هذا الفلاح الذي اكتملت ثقافته العملية من هذه النواحي وأمثالها ، وهي كثيرة متعدّدة ، هو بذاته موضوع درس عميق لا يستغني عن معرفته مصري يريد أن يعيش فوق أرض مصر ، وعلى ضفاف نيلها مرتزقاً بغلاّتها مغتنّاً في إحياء خيراتها . ولاشك في أن هذه الناحية الضخمة من نواحي ثقافتنا التقليدية ، مهملة في معاهدنا كل الاهمال ، فالمصريون مع الأسف أجهل الناس بتاريخ بلادهم ، ذلك في حين أن تاريخ كل شعب جزء لا يتجزأ من ثقافته التقليدية . وأعني بتاريخ بلادهم تاريخها الاجتماعي والنفسي ، لا تاريخ الشهور والأعوام والقرون والغزو والموت والحياة ، تلك الأحداث التي هي عندي في طبيعة الأمم والجماعات أشبه بالأحلام .

فالشاب المتعلم الذي يدرس مذاهب اليونان الفلسفية وتاريخ رومية والأغارقة ، ومذاهب الأدب ومقدمة التوانين ، إلى غير ذلك مما يتلقى الشباب بين جدران معاهدنا ، من غير أن يتصل بثقافة بلاده التقليدية ، شابٌ مصري بالاسم ، لا بالروح ولا بالتقاليد . هو يجهل طبيعة بلاده وخلق أهله ، وتاريخ العصور التي توالت على وطنه أحداثها ، وشكل الحكومات التي تناوبت الحكم فيه ، والميراث الذي ورثه عن أجداده الأقدمين . ولا ريبة في أن شاباً هذا شأنه ، إنما يخرج من معاهد العلم متعلماً جاهلاً ، وإن شئت فقل يخرج متعلماً مشحون الذهن بكثير من المعلومات التي من شأنها أن تفصله عن طبيعة بلاده وتصيّره في محيطه غريباً ، كأنه علقة جديدة في نسمة شيء قديم . ومن هنا يكون عجزه عن الكفاح في الحياة ،

وعن الاتصال بالأرض التي أنشأته وأنشأت السلالة التي انحدر منها منذ أقدم عصور التاريخ.

والحصيلة أننا مشرفون على أزمات اجتماعية أساسها الظاهر الآن كثرة المتعطلين من المتعلمين الذين فصل التعليم بينهم وبين ثقافة بلادهم التقليدية، فأصبحوا فيها غرباء، وسنعالج في الصفحات التالية بعض ما صوّرنا حتى الآن من نقائص حياتنا الاجتماعية من حيث علاقتها بالتعليم.

***

ظاهر إذن مما سبق القول فيه، ان لكل أمة من الأمم ثقافة تقليدية ترثها عن أسلافها، وان هذه الثقافة تصبح بالوراثة قطعة من غريزتها وجزءاً من فطرتها، لا تنفك عنه أمة من الأمم أو تكون قد انفكت عن أخص مميزاتها، وأعظم مظاهرها الاجتماعية. وعقبت على ذلك كله، بمجمل العلاقات التي تربط كل أمة بثقافتها التقليدية إظهاراً لوجهة نظري في هذه المسألة الحيوية.

على أن ما أحصلت به فيما سبق قد قصر على بيان العلاقة التي تربط الثقافة التقليدية في كل أمة بمظاهرها الاجتماعية، من حيث أنها مظاهر اقتصادية لا غير، والآن أريد قبل أن أختم هذه البحوث، أن أظهر أن لنظريتي في الثقافة التقليدية أثراً في تكوين العقلية الفردية، وتكييف العقلية الجماعية منشأةً في كل أمة من الأمم، بمقتضى الظروف والحالات التي لابستها منذ أقدم عصورها التاريخية.

ومن أجل أن نبين عن حقيقة ما نقصد اليه، نقصر الكلام على أخص الظواهر التي ثارت من حولها دعجاجة النقد وكثر فيها الجدل، حتى أصبحت من عقلية الجمهور المتعلم، جزءاً لا يتجزأ.

ولا ريبة أنّ في حياتنا الحاضرة مظاهر، هي بحكم العصر الذي نعيش فيه والحالات التي تكتنفنا، أحق من غيرها وأبين في تكييف عقلياتنا من كل الظواهر الأخرى، وأقصد بذلك الأدب من ناحية، والوطنية من ناحية أخرى.

وأول ما يبدو إلى ذهن الباحث في هذا المقام أن يسأل: أمن علاقة بين الثقافة التقليدية والأدب، أهناك صلة بين هذه الثقافة والوطنية؟ أيكون لماضي الأمم أثر في تكوين أدبها

وصبغ وطنيتها بصبغة خاصة ، وهل من رابطة تربط بين تصورات ومشاعر وعواطف درجت عليها القرون ، وبين أبناء جيل يخيل اليهم أنهم نفضوا أيديهم من الماضي وأزالوا عن كواهلهم تراب الأزمان الغابرة ، فأصبحوا خلقاً جديداً ، وأمة مستحدثة من عناصر لا تمت إلى القديم بسبب من الأسباب ؟

ماكان لباحث أن يسأل هذا السؤال وما كان لهذا السؤال أن يدور في مخيلة مفكر لو أن لنا بثقافتنا التقليدية صلة أو كان لهذه الثقافة علاقة بأدبنا أو حياة وطنيتنا . وإنما يدور هذا السؤال في مخيلة كل مفكر بحكم أننا قطعنا صلتنا بالماضي وفرطنا عقد رابطتنا بعصر القديمة ، وبالأحرى حللنا العقدة التي تصل بين حبل حياتنا الحاضرة والخيوط التي تتكون منها شبكة حياتنا الماضية . ولا شك في أن الفرد ثمرة الماضي . قبل أن يكون ابن الحاضر ، وصلته بذلك الماضي صلة وراثة . أما صلته بالحاضر فصلة ضرورة

ولا مرية في أنّ هذا السؤال غير طبيعي في أمة أحكمت صلتها بماضيها ، ووثقت روابطها بثقافة آبائها الأولين . فهو بمثابة أن تسأل مثلاً : أمن علاقة بين دمي الذي يجري في عروقي ، ودم جدّي أو جد جدّي ؟ وهل من صلة بين تصوراتي ومشاعري وميولي ، وبين طبيعة الأرض التي تغذيني ، والهواء الذي يحييني والسماء التي تظللني ؟ ذلك بأن الأمم متى أحكمت صلتها بماضيها ، وتنشقت دائماً عبير الروح الذي سرى في كيانها منذ أبعد العصور ، لن تشعر يوماً بأنها في محيط غير محيطها الطبيعي ، أو أنها في بيئة غير بيئتها الفطرية ، فيظهر أثر ذلك كله معكوساً في جماع مظاهرها . وبخاصة في آدابها وفي وطنيتها . أما ونحن نشعر الآن بأن أدبنا أدب مصنوع ، لا أدب فطري ، وأن وطنيتنا وطنية ظاهرية لا وطنية حقيقية ، فإنه من الطبيعي أن نسائل أنفسنا عن سبب ذلك ، ومن الطبيعي أن نجد الجواب في النظرية التي أدلينا بها من قبل في العلاقة التي تقوم بين المظاهر الاجتماعية والثقافة التقليدية التي تختص بها كل أمة من الأمم ، وتختص مصر بصورة منها .

قرأت منذ سنوات قصيدة عنوانها « قبرة شيلي » . وعكفت كعادتي في كل ما أقرأ في المترجمات على مقابلتها بالأصل ، فألفيت أن الشاعر المترجم قد أجاد في المحافظة على المعاني الأصلية قدر ما تجيء أوزان الشعر وقوافيه ومفردات اللغة العربية للمترجم أن ينقل شعراً من

الانجليزية الى العربية ، وقد أحسن الشاعر المترجم سبك المعاني في قالب عربي يلائم روح التجديد ، مع المحافظة على جرس الأسلوب العربي ، فأكبرت القصيدة وأعدت تلاوتها مرات مبالغة في الوقوف على ما فيها من أوجه النقد ، ووزنها على مقتضى المعايير التي أومن بها في تقييم الشعر ، ولم ألبث أن أحللتها بين ما اعتقد أنه من جيد الشعر الحديث ، غير أني بعد كل هذا كنت أشعر بأن في القصيدة ماهية أخرى تبعدها عن طبعي ، وتقصيها عن تصوراتي وتجاربي ، وتلقي في روعي أني غريب عن الجو الذي تخلقه من حولي . فلا الجوّ الذي وصفه « شيلي » وغشاه بالسحاب القاتم الشديد السواد هو الجوّ الذي أعرفه ، ولا الغناء القوي الحنون الذي ترسله قبرته هو نفس الغناء الذي أعهده في قبراتنا ، ولا لونها الأصفر الزرياني الذي يجعلها تظهر تحت السحب السود كأنها شرارة من لهب ، هو لون القبرة المغبرة السفعاء التي آنسها في حقولي ، كذلك رأيت في ذكر السيول والأمطار الغامرة التي ترسلها سماء انجلترا شيئاً جديداً لا علاقة له بمحيطي ، ولا صلة له ببيئتي . وعلى الجملة شعرت بأني أقرأ خيالاً انجليزيّاً في شعر عربي . خيال يجذبني من ناحيته الى ثقافة غير ثقافتي التقليدية ، بل يقصيني عن تجاربي ومشاهداتي . وان كل ما يهيء لي القصيدة من قدرة على التصور ، هو ما تحمل ألفاظها العربية من معانٍ أتخيلها تخيلاً وأتصوّرها تصوير الحدس والوهم ، وأن آلة الأداء ، وهي اللغة العربية ، هي الناحية الوحيدة التي تقرّبني بعض التقريب من الجو الشعري الذي تكيّف به القصيدة مشاعري ، ولا شك في أن الشعر شيء ، وآلة ادائه شيء آخر ، وانما يكون الشعر متصلاً بطبع الانسان متى استمدّ عناصره من ثقافة تقليدية لا يُعنت التصور إدراكها ، ولا يتعب الخيال تصويرها ، فيشتمل على نواحي النفس ويخاطب الروح بديئة ، قبل أن يخاطب العقل .

عقبت على هذا بقراءة قصة مترجمة عن كاتب روسي مشهور ، فآنست فيها شططاً في الوصف ومغالاةً في التقدير ، وتحليلات نفسية معقدة غاية التعقيد ، بعيدةً كل البعد عن بساطة الروح المصري الذي آنسه في الفلاح الساذج الذي نشأت محروساً بثقافته التقليدية . ولا أريد أن أبحث شخصيات هذه الرواية لأحكم إن كان في الدنيا شخصيات حقيقية تقابل

الشخصيات التي وصفها الكاتب وحلل نفسياتها [1] ، وإنما أريد أن أقول إن تحليل ذلك الكاتب ، مهما كان فيه من حق وبعد عن المغالاة ، وسواء أكانت الصفات التي أضفاها على شخصياته تلك صفات يمكن لنفس بشرية أن تنطوي عليها ، أم أنها شخصيات خيالية لاتقوم لها حقائق في الخارج ، فجُلُّ ما أرمي اليه أن أقول إنها شخصيات لا تربطني بها رابطة ، ولا تصلني بها صلة ، وأن محيطي الذي أعيش فيه ينكر وجودها وينفي حقيقتها ؛ وبالرغم من أن شخصاً آخر في محيط آخر ، قد يرى أنها شخصيات طبيعية ، بل قد يجسمها خياله على مقتضى تجاربه التي يشهدها في حياته .

ولا أقصد بذلك أن مثل هذا الأدب غير مفيد في توسيع مجال الخيال ، ومدّ آفاقه وتنويع الصور المتخيّلة ، وتوطيد قواعد الأدب المصري من حيث صلته بالآداب الأخرى . وإنما أقول انه مهما كان فيه من المميزات ، فهو أدب دخيل لا أدب أصيل . أدب لاعلاقة له بثقافتنا التقليدية ، فهو من طبع غير طبعنا ، وفطرة خلاف فطرتنا ، إنما هو أدب تصوري ، لا أدب حقيقي ، مقيسه معاييره بمقياس حياتنا الخاصة ، ومحيطنا الخاص . أدب لا تهضم منه فطرتنا إلاّ القليل النادر . هذا على اعتبار أن العلم بالأدب شيء ، وهضمه وتمثيله في الروح شيء آخر . ولن يكون للادب من أثر في الحياة إلاّ بأن تمثله الروح ، فيصبح جزءاً منها ، فتسترشد بمثله وتتعظ بمثلاته ، وتدرك منه الحقائق إدراك استيعاب ، لا إدراك علم بها ، دون الامعان بما فيها من حق ووقائع .

وما أريد أن أستطرد في ضرب الامثال ، فان فيما أوردت منها غنىً عن ذكر غيرها . ذلك بأن كثيراً مما نقرأ في الصحف والمجلات ، وكثيراً من المؤلفات يجري هذا المجرى ، ويسيل هذا السيل ، حتى لقد أصبح أدبنا الحديث ، لكثرة ما فيه من الرقع والرتوق ، ولكثرة ما فيه من صور الأمم الأوربية ، كأنه « عصبة أمم » ولكن في صحف ، سطرت بكلمات عربية .

في وسط هذه الصور العجيبة المتنافرة ، وفي غمرة تلك الفوضى السائدة في الأدب على مختلف ألوانه وعلى متفاوت وجوهه ومتباين ضروبه . أتقع على الأدب المصري الصحيح

---

١ . رواية العلامة الروسي دوستويفسكي : الاخوة كرامازوف

مقدمة

اتجاه مبارك ذاك الذي حمل جملة من متفقهي هذه البلاد ورجالات التعليم فيها على عقد مؤتمر التعليم الذي نشرت قراراته في صحفنا منذ حين .

ومهما يكن من أمر تلك القرارات ، ومهما يكن من أمر البحوث التي ألقاها في المؤتمر ثلة من أهل الرأي ، فانها جميعاً تنطوي على اتجاهات تنظيمية ، لا تتعدّى تنظيم مدارج التعليم والنظر في بعض خصيّاته ، مع الاحتفاظ بالروح القديم الذي جرى عليه التعليم حتى الآن ، أو على الأقل بأكثر ما في هذه الروح من ماهيات . بل إن الأمر قد تعدّى هذه الاتجاهات الى الكلام في مسائل تجريدية منها تنشئة حس الجمال . وليس لنا أن نتكلم في مثل هذا . فليس المجال مجال نقد لما تصدّى له المؤتمر ، وانما المجال مجال القول في الغرض الذي ينشده التعليم ، والمرمى الذي ترمي اليه التربية .

لا ريب مطلقاً في ان لكل عمل انساني غرض أصيل يرمي اليه . فما هو الغرض الذي نرمي اليه من التعليم ؟ وما هي السبل التي ينبغي أن نسوق فيها الشباب ؟

ذلك ما لم يعرض له المؤتمر بطريقة واضحة . وعندي ان الغرض الأسمى من التربية هو تنشئة رجال مستقلين . رجال الاستقلال أخص ميزاتهم . رجال مستقلون في الرأي والخلق وفي كسب الرزق الحلال ، بحيث تضعف فيهم صفة التطفل الاجتماعي والتواكل ، بقدر ما تقوى فيهم صفة الانتاج والأصالة .

أريد أن أقول ان التعليم الصحيح الذي يسد هذا الغرض ، هو أن نصل بين التعليم والحالات الاجتماعية التي تكتنفنا في هذه البقعة التي نشغلها من كرة الأرض . كما أريد أن أقول إنه أساس التعليم السليم الذي يمكن أن يخرج هذه الطبقة من الرجال ، هو التعليم الذي يتصل بثقافتنا التقليدية .

هذه النظرية الجديدة المقتطعة من صميم بيئتنا ، هي موضوع هذا البحث الذي ننشره معتقدين أن في الأخذ بنظريته ، فك الأغلال ، والاتجاه نحو آفاق الحرية الاجتماعية السليمة من أمراض التطفل والجشع الاجتماعي .

الطبع الليّن الجانب ، بما فيه من قوة المقاومة السلبية ، الفرس والروم والرومان والعرب ، والمماليك والأتراك ، ولا يزال مستعداً لابتلاع خمسين قيصرية من أمثال هذه القيصريات العظام ، وهو قابع في عُقر حَقله الصغير ، وفي كسر بيته الطيني : تاركاً دورات الحظ تدور بالسعد حيناً وبالنحس حيناً آخر ، وما يهمه في الحياة من شيء ، إلا أن يضحك ساخراً من الأمم والأقدار .

على أن الاطناب في مثل هذه الأشياء تحصيلُ حاصل ، والاستطراد في ذكر الشواهد عَبَث ، لأننا نشعر شعوراً كاملاً بأن الأدب المصري اسم على غير مسمى ، وإن شئت فقل إنه فرض لا حقيقة له . وأنا أقصد بالأدب المصري ، الأدب المقتطع من حياتنا ومن أنفسنا ومن أخيلتنا . الأدب الذي إذا قرأته تبينت فيه مصر وأرض مصر وسماء مصر وتاريخ مصر وعلى الجملة كل ما توحي به مصر من الموحيات الدفينة في نفوسنا الراسبة في طبعنا الحائرة في أرواحنا .

أما السبب في كل هذا فهو أننا بَعُدنا عن ثقافتنا التقليدية، بل أننا قطعنا صلتنا بالماضي وهِمْنا في فلوات لا نعرف فيها طريقاً نسلك ، لا إلى الأمام لنصير أوربيين صرفاً ، ولا إلى الوراء لنعود إلى مصريتنا مرة أخرى . وإذن نحن في التيه . ولكنه التيه الذي سوف لا نخرج من ظلماته ما دمنا غير قادرين على تقييم حقائق وجودنا تقييما صحيحاً ، وما دمنا عاجزين عن إدراك تلك الحقيقة الأولية . حقيقة أن ثقافتنا التقليدية هي الملجأ الأخير الذي يوقظ فينا « الروح المصرية » التي من طريقها تكوّن الأدب المصري الذي ينبغي أن يكون من حياتنا الأدبية بمثابة الجهاز الهضمي في الحيوان . فيه تهضم الآداب الأخرى ثم تمثل [١] أدباً جديداً ملائماً لآدابنا ومشاعرنا وأخيلتنا . وفي الوقت نفسه تطرد النفايات . تلك النفايات التي تسمم أدبنا وتهدده . لأن أدبنا الجديد أضعف من أن يفرزها إلى الخارج جسمه المتهدم العليل .

هذا من حيث الأدب . أما الوطنية المصرية ، ووصفها بأنها وطنية ظاهرية . فلا يرجع إلى حب الإغراب . ولا إلى حب النقد بغير دليل يقام ، أو حجة مقبولة . لهذا تقسم الوطنية

(١) بالمعنى الاحيائي : أي تحويله جزءاً من الفطرة

قسمين : قسماً يمثله الشباب المتعلم وعلى رأسه الاحزاب . وقسماً يمثله الفلاح الساذج .

على أنه ينبغي لنا قبل الاستطراد في شرح صفات القسمين ، أن نتعرّف كيف نشأت الوطنية ، ومن أي نبع تستمد تصوراتها . وما من شك في أن الوطنية المصرية إنما استمدت أول خطواتها من آداب الثورة الفرنسية الكبرى التي قلبت نظام الحياة في أوربا في أواخر القرن الثامن عشر . والدليل القاطع على هذا أنه منذ عصر عرابي الى اليوم نرى أثر القسمين واضحاً جليّاً في كل ما أدت الوطنية المصرية من الخدم الجسام لمستقبل مصر الحديثة ، فالقسم الاول يأتم بالنظريات التي ذاعت في فرنسا في عصر ثورتها وظلّ مؤتمّاً بها حتى الآن . والقسم الثاني ظلّ متمسكاً بتصوراته القديمة التي عكف عليها طوال العصور التي ظلت فيها مصر ميداناً لتطاحن الامم والقيصريات .

أما الفئة الاولى ، وهي الفئة التي عكفت على النظريات الاوربية تستمد منها تصورات الوطنية فكانت في كل الأدوار التاريخية منذ ستة عقود من الزمان ذات الأثر الواضح في تكييف الظروف التي لابست كياننا السياسي . فهي التي بثّت الروح الجديدة وساقتها في طريق أجبر مقاوميها على أن يعدلوا من موقفهم إزاءها تدريجاً على مقتضى قوتها أو ضعفها حتى أصبحنا اليوم وفي حياتنا السياسية عنصر جديد لم تعرفه مصر منذ عشرين قرناً من الزمان . غير انه مهما قيل في هذه الوطنية فان مظاهرها قاصرة على تصورات فئة قليلة العدد مقيسة بفئة الذين يؤمنون بالوطنية مسبوكة في القالب الذي صوّره الفلاح المصري ليكون حدّاً لوطنيته . وأن كلامنا إنما ينصب على وطنية هذا الفلاح دون غيرها

قد تعجب ويشتد بك العجب إذا أنا قررت هنا الفلاح المصري شديد الوطنية مغال فيها ، بل متطرف في وطنيته أشد تطرف ، ولكنك مجانب هذا تسأل أين الآثار التي تتجلى فيها هذه الوطنية . فأجيبك بأنها تظهر كل يوم على صفحات جرائدنا الاخبارية ، وتشغل بها الحكومة في أكثر أيام السنة ! ألا تقرأ كل يوم أن فلاحاً حزّ رقبة أخيه لانه اعتدى على حقله فهدّ جزءاً من حدوده ؟ ألا تسمع أن أسرة شهرت السلاح في وجه أخرى لان أحد أفرادها أراد أن يأخذ نصيب آخر من الماء ، وأن الموقعة انجلت عن قتيل وجرحى وأسرى هم رهن التحقيق ؟ إذن فعرف أن هذه هي الآثار التي تترجم عن وطنية الفلاح المصري

أما الوطنية نفسها فتنطوي على حب الحقل والدفاع عنه بالمال وبالولد وبالروح ، ذلك بأن الفلاح الذي فقد حقوقه المدنية والسياسية طوال عصور قلما تعيها الذكريات ، ونزل به من الفادحات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، لم يصبح عنده في الدنيا من شيء ذي قيمة الاّ ذلك الحقل بحدوده الاربع ، والاّ ذلك النزر من الماء المحيي الذي يجود عليه بالرزق الحلال .

أما السبب في أن تنضمر الوطنية المصرية حتى تصبح في نظر الفلاح الذي هو أهم عناصر مصر الحيوية محوية في داخل هذه الحدود الضيقة فراجع الى أسباب تاريخية . فانه منذ غزو الاسكندر المقدوني ، ومن قبله بعشر سنين ، أي منذ أن طرد الفرس آخر ملوك الفراعنة واسمه « نقطانيبو » لم يَسُد المصريون في بلادهم يوماً واحداً ، وظلّ المصريون بين الحقول يزرعونها ليعولوا أنفسهم ، ويعولوا أسيادهم الذين يتسلطون عليهم من أية أمة كانوا ، وبأي دين دانوا . فقد استطاع المصريون قبل الغزو الفارسي الأخير أن يستردوا حريتهم المرّة بعد المرّة ، عقيب كل غزو دهمتهم به أمة أجنبية كالهكسوس وغيرهم ، وأن يقيموا على عرش بلادهم أسراً من الفراعنة تحيي تقاليد الحكم والثقافة والامة ، تلك التقاليد التي نشأت ورسخت في مدى عصور متعاقبة . ولكن تلك الغزوة كانت آخر عهد ملوك الفراعنة الذين تجري في عروقهم الدماء الوطنية بالحكم على ضفاف النيل والى آخر الدهور . فمنذ فتح الاسكندر ، خضعت مصر ألف سنة لحكام ملّيي للحضارة من مقدونيين ورومان ، وفي نهايتها صارت مصر جزءاً من جسم الاسلام ، فبدّلت تبديلاً ، وأصبحت لها لغة أخرى ، ونظام اجتماعي لا عهد لها به ، ودين جديد ونبذ الآلهة الذين عبدوا في مصر على أنهم آلهتها الخواص الآلاف من السنين نبذاً أبدياً ثم دفنوا في ثراها .

ومنذ ذلك التاريخ لم يغز مصري أصيل بالحكم على شطآن النيل ، بل لقد مرّت عصور طويلة كعصر البطالمة مثلاً لم يكن في الحكومة كلها من مصري شغل مركزاً أكبر من مركز صرّاف يجبي المال . بل رأى المصريون معابدهم المقدسة تستباح فيتخذها المقدونيون موضعاً لهوهم وعبثهم ومكرهم وعربدتهم ورأوا الفرس يذبحون عجلهم المقدّس من قبل ذلك .

ولقد كان لهذه الملابسات التاريخية آثار كيّفت الوطنية المصرية فحدّدتها بحدود الحقل المقدّس . وانما صار الحقل مقدساً في عين المصري لأنه كان الملجأ الوحيد الذي لجأ اليه طهاه

من الانقراض التام. ولولا ذلك الحقل إذن لأصبحت مصر اليوم إما رومية وإما لاتينية. ولكن الحقل قام سدًّا بين الغزاة وبين المصريين أين منه سد يأجوج ومأجوج. ذلك بأن ترى مصر لم يكن ليزرعه إلاّ المصري ولا يقوى عليه غير المصري. لهذا عبده المصريون بعد «أبيس» وقدّسوه في الأعصر الحديثة تقديساً ليس فوقه عندهم شيء إلاّ خشية الله. ففي الحقل رزقه وقوته. وفي طرف منه قطعة صويت لا تزيد مساحتها عن بضعة أقدام مربعة فرشت بنبات الحلفاء هي مصلاّه. فالحقل للفلاح عالم صغير مقدّس يذود عنه بالروح ويبذل في سبيله الدم لأنه ملجؤه الأخير وملاذه ومبتغاه. وبالجملة أصبح له كما يقول «هوجو» البيضة والعش والسكن والوطن والكون.

فلا عجب اذن في أن تنحصر الوطنية المصرية ونعني بها وطنية السواد من أهل مصر في حدود ذلك الحقل ولا تتعداه. وكيف تتعداه وقد آنست فيه الحياة آلاف السنين واستقرّت في تربته الأجيال تم الأجيال.

وكما أننا عجزنا عن أن نكوّن أدباً مصريًّا صحيحاً نوي الروح والأخيلة بأن بعدنا عن ثقافتنا التقليدية فكذلك عجزنا عن أن نخرج لهذا السبب عينه وطنيتنا من حدود الحقل الى حدود مصر، وليس هذا وحده السبب في أن وطنيتنا ظاهرية، بل أن هنالك سبباً آخر يتجلى في أن أصحاب الفريق الأول من وطنيينا وهم الذين يستمدون تصوراتهم الوطنية منقولة من أوروبا، لم يتغلغلوا في صميم مصر ليفهموا حقيقة السبب في ضعف الوطنية المصرية، وإنما يجب علينا أن نعكف على ثقافة تقليدية نتزعها من صميم مصر، لتكون عوننا في بناء صرح المجد كاملاً اقتصاداً وأدباً ووطنية.

وأما نقلنا في هذا حتى الآن فإلى أي شيء نعزوه؟ إلى السياسة التي جرى عليها التعليم في بلادنا بغير جدال. وسنظهر في ما يتلو من البحث، جهد مستطاعنا، كيف ننحو بثقافة تقليدية مستحدثة تنقذنا من البوار المحتوم.

لقد بلغنا من البحث ذلك المبلغ الذي يهيء لنا أن نخلص إلى النتائج فقد شرحنا الاسباب التي أفضت بنا إلى تخريج متعلمين متعطلين لا عن لهم، ولا بيئة يمكن أن ينتفع فيها بما تعلموا، وصوّرنا مجمل النتائج الاجتماعية التي تترتب على هذه نعمل، وسبقنا الفروقات

فاستنبطنا منها صورة لما سوف يكون عليه مجتمعنا في المستقبل القريب ، والنتائج السيئة التي ستظهر آثارها جلية واضحة في عجزنا عن الاحتفاظ بحالة اجتماعية ثابتة قوية الأركان ، وعطفنا من ثمّ على وصف صورة من أدبنا ووطنيتنا ، وعزونا كل النقائص إلى نظرية جديدة مجملها أن الانفصال عن ثقافتنا التقليدية كان السبب في أن نصبح ككائن حي لا معدة له يأكل ولا يهضم فتراكمت في كيانه كل النفايات التي لا تلائم طبعه ، ولا تتفق ومزاجه . وأن ذلك كان سبباً في ألا تظهر له شخصية خاصة به وأصبح كلاًّ على غيره بأن فقد استقلاله الذاتي .

ويجدر بنا بعد ذلك أن نعيّن ممّ تتكوّن الثقافة التقليدية ليتيسر لنا أن نحدد البحث تحديداً منطقيًّا مقبولاً فإن لكل ثقافة تقليدية اختصت بها أيّةٌ من الأمم مكونات تنتهي إلى أصول بعينها . وعندي أن الثقافة التقليدية عنصرين . الأول : عنصر عقلي . والثاني عنصر معاشي وكلاهما موروث . فالأول يتكون وراثة من اللغة والدين والتاريخ والأدب والفنون الخ . والثاني : يتكوّن وراثة من كل ما يتعلق بالأحوال المعيشية وهي في مصر الزراعة وما يتعلق بها من المتممات ومن أجل أن يكمل استقلال الفرد استقلالاً عمليًّا في الحياة . ينبغي أن يتجه تنشيئه إلى أصل أساسي وبالأحرى إلى سياسة عملية ترمي إلى وصله بالعنصرين وصلاً وثيقاً حتى يستطيع أن يمثل جميع ما يلقح به من مقتضيات الثقافة الحديثة فيكيفها على حسب ما تتطلبه حاجات ثقافته التقليدية . وأن ينفي عن جسمه كل ما هو غير ملائم له فيظل سليماً ، شأن كل كائن حي اتصف بكل ما تعده به حيوية مكتملة من الصفات الضرورية للحياة ، وتكافأت في كيانه كل الأفعال التي ترجع إلى قدرة أعضائه على تنظيم وظائفها المتبادلة تنظيماً دقيقاً يساعد الطبيعة على أن تفسح له في الحياة مركزاً جديراً بما يتصف به من صفات وبما له من مقدرة على الاستقلال بذاته .

تتصل مصر بثقافتين من أعظم الثقافات التي خلفها النوع الإنساني : ثقافة العرب : ديناً ولغة . وثقافة المصريين : فنًّا وحياة . ولا شك في أن الثقافتين تمتزجان الآن في المصريين امتزاجاً عظيماً حتى ليتعين علينا أن نقول إن ما نعني بالثقافة التقليدية ينحصر فيما ينتج مزيج الثقافتين القديمتين من حالات نشعر بأننا مكوّنون منها ، وأن دمنا مائج بها ، وأن تصوراتنا

ومشاعرنا وجماع ما فينا من صفات انما تنعكس عنها وتنبعث منها. وكذلك اذا قلنا «المصرية» فانا لا نعني بها شيئاً الا مزيج تينك الثقافتين الجديدتين اللتين كوّنتا لنا على مرّ العصور تراثاً قومياً نستند اليه، ودعامة متينة للجد ينتظرنا إذا نحن استوحيناه، واسترشدنا بوحيهما واتخذناها أساساً نقيم عليه لمستقبلنا ولم نعرف عنهما هأننا الآن.

وإذاً يكون لنا من ثقافتنا التقليدية ناحيتان. الأولى: ثقافة تزوّدنا بها اللغة العربية والدين الاسلامي. وهذه الناحية تكوّن أكثر ما فينا من نزعات الأدب والعلم. والثانية: ثقافة تزوّدنا بها مصر القديمة وهذه بدورها تكوّن متجهنا الفني والمعاشي: ومنهما يتكوّن ذلك التراث الخالد الذي ندعوه ثقافة المصريين التقليدية.

ولن يكون هذا البحث كاملاً الاّ إذا عرفنا قيمة اتصالنا بهذه الثقافة ومقدار ما نحتاج اليها في تكوين نهضتنا الحديثة تكويناً نضمن معه الثمرة العملية التي ترجى من جيل جديد قادر على الكفاح في الحياة والعمل المنتج الذي يعيننا على اقرار الحالات الاجتماعية على أساس ثابت. وآمل أن أكون قد أفلحت بعض الشيء في تصوير ذلك في سياق هذا الحديث.

لا ريبة في أن التعليم العام هو الاداة التي تمهد لنا سبيل الاتصال بثقافتنا التقليدية. ولقد وضح لنا حتى الآن أن السياسة التي جرى عليها التعليم في بلادنا قد أضعفت من وسائل هذه الأداة إضعافاً ظهر أثره جلياً في كل مرافقنا، بل وفي كل نواحي حياتنا عقلية ومادية.

عمد الاوربيون منذ عهد النهضة الأدبية الحديثة الى الاتصال بثقافتين أوربيتين كانتا العماد الأول والسادة العظمى في تلك النهضة. عمدوا الى ثقافة اليونان وثقافة الرومان حتى لقد غالوا في ذلك باتخاذ اللغة اللاتينية لغة رسمية في العلم وفي الأدب وفي الفن. فأحيوا بذلك ثقافتين لم يكن لها مناص من احيائهما لتكون الوصلة بينهما وبين ماضٍ صبغ ثقافة حوض البحر المتوسط قروناً بصبغة خاصة ولون خاص. ولا تزال جامعات أوربا حتى اليوم تعنى العناية كلها بتلقيح عقول الناشئين بتراث الثقافتين معاً، بل وتجعل درس اللغتين اليونانية واللاتينية أصلاً من أصول التثقيف العالي. فلمَ كان ذلك؟ ولأي من الأسباب الحيوية التي شعر بها الاوربيون في بدء نهضتهم ترجع هذه الظاهرة؟ إنما ترجع كما قلنا الى أن الثقافة التقليدية هي

الأصل الذي يجب أن يظل ثابتاً في بناء الأمم الأدبي والاجتماعي ليكون مستقطباً للآراء والنظريات وضروب الثقافات الدخيلة احتفاظاً بالطابع الأصيل في الأمة، ذلك الطابع الذي هو جزء من كيانها وقطعة من وجودها وليكون في الوقت ذاته المدة في تمثيل ما يتصل بثقافة الأمة من الثقافات المتحلة غير الأصيلة، وتكييفها تكييفاً يتفق ونزعاتها ومشاعرها وأخيلتها، وعلى الجملة يتفق وثقافتها التقليدية. فهل اتسقت نهضتنا هذه السبيل القويمة؟ وهل كفل لنا التعليم الوصول إلى هذه الغايات العليا؟

كلا. لم يكفل لنا التعليم شيئاً من هذا، وأقصد به التعليم بناحيته: الناحية التي تمثل وراثتنا عن العرب لغة وديناً، وأعني بها الأزهر، فانه لم يلقح بشيء من الأساليب الحديثة التي يجب أن يلقح بها لتكون له بمثابة الدم الجديد يجري في العروق القديمة. وكذلك لم تعن الناحية التي تمثل ثقافتنا الدخيلة: أي الثقافة الأوربية وأعني بها ناحية التعليم الرسمي، بأن تكون فينا تلك الفطرة التي تصلنا بثقافتنا التقليدية لتكون معملاً حديثاً يتحلل فيه ما يصلنا عن أوربا ويخرج منه مصبوغاً بصبغة مصرية أصيلة. ومثل الأزهر في ذلك كمثل كائن حي هضم ولم يأكل، ومثل التعليم الرسمي كمثل كائن حي أكل ولم يهضم. فناحية جائعة، وناحية متخومة.

لقد ظل اتصال الأزهر بذلك الجزء الذي يمثله من ثقافتنا التقليدية غير مكيف بمقتضيات العصور والحالات التي قامت خلالها، وهو أقل تكيفاً بمقتضيات هذا العصر منه بمقتضيات كل عصر مضى. أما إذا آمنت بأن كلمة الثقافة تدل على تكييف الذهن تكييفاً تاريخياً أول شيء، ونقصد بالتكييف التاريخي خلق تصورات جديدة من تاريخ الأمم القديمة — فما من شك إذن في أن الأزهر لم يتصل بالثقافة التقليدية من ناحيتها التي تخلق هذا التصور، وإنما اتصل بناحية من الثقافة التقليدية صدت التصورات عن الانبعاث في سبيل الابتكار. وكذلك ظل تعليمنا الرسمي بعيداً عن الاتصال بثقافتنا التقليدية من جميع نواحيها تقريباً. ومن هنا ذلك الصدع المتنائي الذي نلاحظه قائماً بين الناحيتين.

واقد يخيل إلي أن ما مضينا فيه من بحث هذه الناحية كاف للبيان عما نقصده من ضرورة الاتصال بثقافتنا التقليدية من الوجهة العقلية. أما الوجهة الفنية الماضية، وهي

الناحية التي لها الأثر الأكبر في علاج الحالات الاجتماعية التي قامت حقائقنا من الناحية الاقتصادية، فتلك ما سوف أصور كيفية الاتصال بها تصويراً عملياً لأن هذا هو الغرض الأول من بحثنا هذا.

إذا كان ما قلنا صحيحاً من أن التعطل في مصر والتعليم أمران متصلان أشد الاتصال باعتبار ان أحدهما مرض، والثاني علاج، فالواجب يقضي علينا بعد أن أظهرنا أوجه الاتصال أن نبين عن الطريق العملي الذي يجعل العلاج ناجعاً في القضاء على الداء. ولما كانت ثقافتنا التقليدية من الوجهة المعاشية هي الزراعة تحتم علينا بحكم الضرورة أن ننقل درجتي التعليم الأوليين أي الابتدائي والثانوي، وهما الدرجتان التكوينيتان في مراحل التعليم، من المدن الى القرى، وأن نقيمهما على سياسة تختلف اختلافاً تاماً عن السياسة التي يجريان عليها الآن.

***

تجري سياسة التعليم الآن في هاتين المرحلتين على أساس نظري بعيد عن أن يجعل لنا أي اتصال بثقافتنا التقليدية من وجهتيها العقلية والمعاشية. ولا أكون مغالياً إذا قلت إن هذه السياسة لا تصلنا بثقافة أوربا أيضاً بحيث تجعلنا قادرين على فهم ما ننقل منها فهماً صحيحاً مفيداً. وما قولك في شاب يخرج من التعليم الثانوي جاهلاً بلغته العربية وأصولها وآدابها، غير متصل بآداب دينه غير عارف بشيء من تاريخ بلاده. وبالأحرى من تاريخ العرب أو تاريخ مصر، عاجز عن التعبير تعبيراً صحيحاً بأي من اللغتين الأوربيتين اللتين يتلقاهما في مراحل ذلك التعليم؟ أضف إلى ذلك أنه بجانب هذا يخرج من التعليم الثانوي غير متصل بشيء من ثقافة بلاده التقليدية من الوجهة المعاشية، غير متصل بطبيعة الأرض التي أنشأته أو بطرق استغلالها مشحون الذهن بنظريات وأوهام يتعذر معها أن يعايش الفلاح وأن يدرك شيئاً من سر حياته وتقاليده وخطراته ونفسيته. فكأننا بهذا التعليم نخلق من حوله جواً مصطنعاً وبيئة خفية غريبة عن طبعه. فيصبح بذلك أداة عاطلة في جسم الاجتماع وبؤرة حية للتبرم بالحالات القائمة من حوله في مرباه، بل ومنشأ للقلق ومرتعاً لغرس الأفكار المتطرفة الخاطئة. وعلى الجملة يكون مرتعاً خصباً لغرس بذور الشر

والفساد والعمل على قلب النظم الاجتماعية طمعاً في الحصول على نظم تلائم كفاياته ، وتتفق ومؤهلاته التي أهله التعليم لها . ذلك بأن كل عقلية لها تكوين خاص تنشد من طريقه دائماً البيئة التي ترضيها ، وعجز المتعلم المتعطل عن الانتاج إنما يحمله بمقتضى موجبات عقله الباطن على أن يعمل على تكوين البيئة التي تلائمه متخذاً من النظم الاجتماعية التي نشأ فيها ، مادة يجرب فيها مقدار ما في نفسه من قوة التحليل ، لا من قوة التشييد ، على خلق البيئة التي ترضيه ، والنظم التي توائم عقليته وكفاياته . وما لنا أن نقول لهم من شيء إلا ما يقول آرل بلفور لأمثالهم من أهل بيئته : بأنهم إذا مزقوا القيم القديمة وأرسلوها أباديد ، فقد يتعذر عليهم الاحتفاظ بالقيم الجديدة على وجه الاستمرار .

إن الخطوة الأولى التي ندعو إليها وهي نقل درجتي التعليم الأوليين من المدن إلى القرى خطوة ضرورية في علاج سياسة التعليم ، وهي الخطوة الأساسية في وصل التعليم بثقافة البلاد التقليدية من الوجهة العاشية . أما الخطوة الثانية فتنحصر في اقامة مدارس الحقول ، فتشيد المدرسة على أرض فسيحة تكفي لأن تكون ميداناً يتعلم فيه الطلاب طرق الزراعة العملية على القواعد الحديثة ، ويجب مع هذا أن تلغى الشهادة الابتدائية ويكتفى بشهادة التعليم الثانوي ، وأن يبدأ الطالب حياته التعليمية في هذه المدارس من الثامنة ، ويفرغ من تعليمه الثانوي بعد عشر سنين ، فيخرج من المدرسة وله من العمر ثماني عشرة سنة أو عشرين سنة . فاذا أراد أن يتخصص بعد ذلك في التعليم العالي فله ذلك ، ولكن بعد أن يكون قد اتصل بثقافة بلاده التقليدية وقامت معلوماته على أساس عملي رشيد ، يكون إليه مرد رزقه إذا تخصص وعجز عن كسب رزقه الحلال

***

هذا هيكل من الرأي يحتاج إلى شرح وجيز . فاننا لا نعني أن تعليم الطلاب في تلك المدارس الزراعية العملية يجب أن لا يصل الطالب بالناحية النظرية ، وإنما نعني أن يكون أساس التعليم فيها الزراعة العملية ، وما يتصل بها من العلوم ، وبجانب ذلك تعليم نظري قائم في أول الأمر على الاتصال بثقافة المصريين التقليدية من الوجهة العقلية ، مع العناية بأمر

اللغات الاوروبية عناية كبرى حتى يتيسر لنا الاتصال بثقافة العصر اتصالاً وثيقاً صحيحاً .

أضف الى ذلك أن الطالب ينبغي أن يلقن كل ما يتصل بالانتاج الصناعي من الوجهة الزراعية ، فيخرج ملمّاً بطائفة من الصناعات المتصلة بمحصولات بلاده الزراعية ، عارفاً بسرها ووجهة الانتفاع بها . ولا أغالي إذا قلت إن كثيراً من الذين ينجحون من أهل أوربا في بلادنا أكثر اتصالاً بثقافة بلادنا التقليدية من الوجهة المعيشية من الطالب المتخرج من كلية عليا من كلياتنا ، وفي هذا سر نجاحه العملي ، وسر تعطل شبابنا عن العمل . ولهذا يتحتم علينا أن ندعو الى نشر الصناعات التي تتصل أول شيء بمنتوجاتنا الزراعية ، وأن نصدف عن غيرها لأنها لا تفيدنا شيئاً في حياتنا المعيشية أو تثبت حالاتنا الاجتماعية المرتجة الشاذة ، وبخاصة اذا وعينا أن دور التعليم على اختلاف نواحيها تخرج كل عام عدداً من المتعلمين تعليماً غير عملي زائداً عن حاجة البلاد .

وانما يجب أن يتجه التعليم في الحقول الى غاية أخلاقية محصلها أن يغرس في طبيعة المتعلمين تصور جديد في شرف المهنة التقليدية التي ورثناها عن أسلافنا ، ألا وهي الزراعة. فان التلميذ يجب أن يضع يده في كل عمل يمكن أن يؤديه الفلاح بنفسه ، وأن يتصل عن طريق عضلاته بكل ما تتطلبه مهنة الزراعة من أعمال جثمانية ، وأن لا يرى في ذلك شيئاً خادشاً لمرتبه أومذلاً لنفسه .

***

أورثنا الحكم التركي المشئوم عادة احتقار الفلاح، لان كلة « فلاح » كانت توازي عند التركي أحط ألفاظ الشتم وأشنع كلمات السباب . ولطول الأمد الذي اعتدنا أن نسمع فيه هذه الكلمة مؤدية ذلك المعنى ، غرس في طبيعة المصريين أنفسهم ، بطريق التكرار وموحيات العقل الباطن ، ميل الى احتقار الفلاح واحتقار مهنته ، والاعتقاد بأن العمل البدوي في الزراعة انما هو عقاب نفسي مرهق للنفس خادش للعزة . وأنت ترى أن الاعراب في مصر قد انتحلوا هذه العادة . فانك اذا سألت أعرابياً أفلاح أنت ؟ أجابك على الفور « كلاً ، أنا أعرابي » ولكن بنبرات تدل على انه يعتبر الكلمة اعتداء على مكانته السامية ،

وقد يكون من خشاش الناس ومن دؤبان العرب ، مهلهل الثياب قذر المنظر والمخبر .

ولم يقف الأمر عند هـذا الحد ، بل إنك تجد أن الفلاح إذا قضى خدمته العسكرية وتسرّح من الجيش ، أنف أن يعود الى الحقل ، أو أن يحمل المحراث، أو يقود الماشية ، فاذا عجز عن أن يكون شرطيًّا ، قضى وقته في القرية عاطلا أو محترفاً حرفة أخرى غير الزراعة، فتجـده نجاراً أو حداداً لا يملك قوت يومه . وقد يتطرّف بعضهم في احتقار مهنة آبائه فيغشى المجالس عازفاً على قيثارة ، لانه كان في موسيقى الجيش ، مستجدياً بها ، كأنما هو يعتقد أنّ الاستجداء بالعزف على قيثارة أشرف من العمل في الحقول . ولاشك في أن هذه الظاهرة قد أورثتنا نقصاً نفسيًّا يمكن تعليـله علميًّا ، ولـكن ليس هنا مكان ايضاحه . ولـكن ذلك لا يحول دون القول بأن هـذه الظاهرة من السهل علاجها بأن نعوّد أولادنا الاعتقاد بشرف المهنة التي تربي جـوعهم ، وعليهـا قامت مدنيّهم منذ أقدم العصور ، على أن نفهمهم أولاً أن لهم مدنية وماضياً جديرين بالاحترام .

***

والمحصل اننا لن نخلص من نتائج التعطل إلاّ بالالتجاء الى اقامة سياسة التعليم على قواعد جديدة أساسها الأول الرجوع الى ثقافتنا التقليـدية ، فنخرج رجالاً مستقلين بأنفسهم ، يعرفون كيف يرجعون الى حضن أمهم الأولى « مصر » اذا أرادوا الحياة سعيدة هنيئة . ومن أجل أن نصل الى هـذه النتيجة ينبغي لنا أن ننتحي أسلوباً معيناً ينحصر في تنفيذ الآتي :

أولاً — جعل مدة التعليم الابتدائي والثانوي عشر سنوات يمتزج فيها التعليم النظري بالتعليم العملي الزراعي ، وأن يغرس في الطلاب روح الاعتقاد بشرف مهنـة آبائهم التقليـدية ، وأن يقترن هذا التعليم بتلقين الصناعات الزراعية وبخاصة ما يتعلق بالزراعة العملية منها .

ثانياً — درس تاريخ العرب والمصريين درساً تحليليًّا وافياً .

ثالثاً — درس مبادىء العلوم والآداب العامة وهي الجهـة التي تتفتح بها عقولنا من الثقافة الحديثة

رابعاً — درس مبادىء الأدب ومبادىء الدين العليا .

خامساً — درس عقائد المصريين القدماء وطرق معيشتهم وآثارهم وأعيادهم ، وعلى الجملة كل ما يتعلق بحياة الجماعة في مصر القديمة .

وهنالك بجانب هذه أشياء يجب أن يُهَيَّأ الناشىء بمعرفتها ، ولكنها جميعاً تفاريع على هذه الأصول فلا محل لذكرها .

فإذا تخرّج الطالب وله من العمر ثماني عشرة سنة أو عشرين ، أصبح على الحكومة له واجباً تؤديه ، هو أن تمنحه قطعة من أرضها المملوكة يؤدي لها فيها ثمناً تأجيلاً على أقساط طويلة ، وأن تمده برأس مال إن احتاج إليه يسدّد مع ثمن الأرض ليكون عونه على اعداد عدّته لحياة العمل والكفاح .

***

هذا طريق الخلاص ، وهو وحده طريق القضاء على التعطّل ، وإخراج جيل جديد منشأ على طرق عملية ، جيل مكافح عامل خالٍ من آثار الأمراض الاجتماعية ، جيل يشعر بأنه مستقل في الحياة ، وأن له عزّة الرجولة وشرف الانتساب إلى مصر الخالدة ، جيل هو جيل الاستقلال الحقيقي والعمل لمجد النيل .